د. قاسم عبده قاسم

تطور منهج البحث في الدراسات التاريخية





تطور منهج البحث
فى الدراسات التاريخية

دكتور قاسم عبده قاسم
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
ورئيس قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة الزقازيق

الطبعة الأولى
٢٠٠٠ م



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

تصميم الغلاف : منى العيسوى

صورة الغلاف الأمامي : صفحة من مخطوط مصرى عن حروب الفرسان (ق٨هـ / ق١٤م)

صورة الغلاف الخلفي : صفحة من مخطوط رحلة متى الباريسى من لندن إلى القدس (ق١٣م)

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع ترعة المريوطية – الهرم – ج.م.ع – تليفون ٣٨٧١٦٩٣

ص . ب ٦٥ خالد بن الوليد بالهرم – رمز بريدى ١٢٥٦٧

Publisher:ÊIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
5, Maryoutia St., Alharam - A.R.E. Tel : 3871693
P . B 65 Khalid Ben - Alwalid - Alharam P. C 12567

إهـداء

إلـى روح شيخنـا

تقـى الدين المقريـزى

رحمـه الله

قاسم


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ثمة علاقة جدلية بين العلم والمنهج ؛ إذ إنه ليس معقولا أن يكون المنهج منفصلاً عن العلم الذى يتناوله ، وليس من المتصور أن يكون منهج البحث معزولاً عن العلم الذى يبحث فيه . وعلم التاريخ ليس استثناء فى ذلك بطبيعة الحال . ذلك أن التطور المعرفى الكمى فى الدراسات التاريخية قد كشف الكثير عن غوامض رحلة الإنسان فى الكون عبر الزمان ، وبات فى متناولنا كم من المعلومات التاريخية التى يمكن التعامل معها باعتبارها من حقائق التاريخ الإنسانى الثابتة . هذا التراكم المعرفى أنتج بدوره تطوراً فى منهج البحث التاريخى بحيث تخطى المرحلة الوصفية إلى مراحل أخرى اكثر تقدما وصولاً إلى المنهج الكمى والإحصائى الذى صار من أكثر المناهج فعالية فى التعامل مع المعلومات التاريخية .

لقد بدأت رحلة العلاقة بين التاريخ ومنهج البحث التاريخى منذ زمن مبكر فى عمر الإنسان على سطح هذا الكوكب ، كانت البداية مرتبطة برغبة الإنسان فى معرفة أصول الأشياء والعلاقات داخل هذا الكون ، ولما كانت التسجيلات "التاريخية" ناقصة وجزئية ، وربما غائبة فى كثير من الأحيان ، لجأ الإنسان إلى الخيال لكى يعوض به النقص ويسد الثغرات فى تاريخ نشاطه فى الماضى . وهنا اختلطت حقائق التاريخ بموضوعات الأساطير ، وكانت «القراءة» الأولى لتاريخ الإنسانية قراءة

أسطورية تمثلت فى نواة تاريخية محملة بالكثير من الخيال والتصورات والإسقاطات والصياغات التعويضية . وفى هذه "القراءة" الأولى لم يكن "المنهج" بمعناه العلمى موجوداً وإنما وجد بشكل بدائى ؛ إذ كان الهدف هو رسم صورة للماضى تروى ظمأ الإنسان وتعطشه إلى المعرفة "التاريخية" . فالإنسان مولع بمعرفة الماضى لكى يفهم أصول الحاضر ، وهذه الرغبة الطبيعية فى معرفة الماضى هى التى حفزته على هذا النوع من القراءة الأسطورية للتاريخ فى محاولة للإجابة على السؤال المضنى "لماذا ؟" - لماذا جرت الأمور على هذا النحو ؟ وماهى أصول الأشياء والظواهر والعلاقات داخل الكون ؟ ولأن المعرفة التاريخية كانت ناقصة آنذاك ، فقد جاء "المنهج" ناقصًا أيضًا . وهذه أولى تجليات العلاقة بين العلم التاريخى ومنهج البحث التاريخى .

ثم مضى زمن حمل بعض التطورات فى مسيرة الإنسان ، وتقدم العقل البشرى خطوة إلى الأمام بحيث بات مستعداً لقبول رسالة السماء. وقدمت الأديان إجابتها على السؤال المضنى "لماذا ؟" ومن هنا جاءت "القراءة الدينية" للتاريخ ، وهذه القراءة استهدفت أغراضًا بعينها اختلفت من دين إلى دين آخر ؛ فقد ركزت القراءة اليهودية للتاريخ على فكرة "شعب الله المختار" والأرض الموعودة ومن ثم جاءت "القراءة" غائية تهدف إلى تطويع التاريخ لصالح اليهود ووضعه فى قالب يحقق رؤية اليهود لأنفسهم ودورهم فى العالم الذى رأوه "دوراً تاريخيًا" ينفردون به وينفرد بهم ، وهنا لم يكن ثمة منهج علمى يدرس حقائق التاريخ الموضوعية وإنما صياغات تخدم فكرة التاريخ اليهودية ، وبقدر ماكانت الكتابات التاريخية اليهودية منحازة وغير موضوعية على نحو

مايظهر في أسفار العهد القديم كان "المنهج" غائبًا أو مشوشًا على أحسن الفروض . إذ لم تكن الحقيقة هدف من كتبوا التوراة وصاغوا الروايات التاريخية حول تاريخ اليهود ، وإنما كان هدفهم تأكيد فكرة أن الله قد اختارهم وتدخل في أحداث التاريخ لصالحهم بغض النظر عن طاعتهم له أو تمردهم عليه .

أما «القراءة المسيحية» ، وهي جانب آخر من جوانب القراءة الدينية للتاريخ ، فكانت قراءة غائية أيضا ولكن في سياق مختلف ؛ فالإنسان من وجهة نظر المسيحية يحمل ذنب الخطيئة الأولى ، وماحياته في الدنيا سوى رحلة تتوسط مجيء المسيح الأول ومجيئه الثاني . وعلى الإنسان أن يسعى للحصول على الخلاص . وقد جاء المسيح لخلاص البشرية ، وعلى المؤمنين به أن يتبعوا نهجه في التضحية بالجسد والمادة وصولاً إلى الخلاص والسعادة الروحية . ومن ثم رأت المسيحية أن تاريخ البشرية قبل المسيح تمهيد لقدومه ، وأن تاريخ البشرية بعده سعي للخلاص وانتظار لقدومه الثاني .. وهكذا ، رأت المسيحية في التاريخ كتابًا كتب الرب فصوله وليس للإنسان فيه أي دور إيجابي وعليه انتظار ماتسفر عنه إرادة الرب . وترتب على ذلك أن تمت صياغة التاريخ الإنساني صياغة غائية وتم استبعاد الحقائق التاريخية الموضوعية التي لاتخدم هذا الهدف ؛ وبذلك لم يكن هناك "منهج" للبحث عن الحقيقة التاريخية . وجاءت القوالب المسيحية لتصب التاريخ في إسارها بصرف النظر عن حقائق التاريخ . وبرز هذا الاتجاه في كتابات أيوزيبيوس أسقف قيصرية ، وأوغسطين معلم المسيحية الكاثوليكية ، وحوليات الرهبان .

وفكرة التاريخ فى الإسلام تختلف تماماً عنها فى اليهودية والمسيحية، إذ إن الإسلام يأخذ موقفا إيجابيًا من الإنسان الذى كرمه الله وجعله خليفة فى الأرض وسخَّر له مظاهر الكون والمخلوقات الأخرى فى هذا الكون . "والتاريخ" فى القرآن الكريم له غرض تعليمى ؛ فهو يسرد قصص الأمم والشعوب السابقة من منطق العظة والعبرة . والهدف هو بيان "سنة الله التى خلت فى عباده ولن تجد لسنة الله تبديلاً " فالحضارات لاتقوم بالصدفة ولاتسقط بلا سبب ؛ فثمة قانون أخلاقى يجب على الإنسان أن يلتزم به حتى ينجح فى مسعاه ويفلح فى دنياه بحيث يستطيع أن يشيد الحضارة ، فإذا ما أخذ طريق الخطأ وابتعد عن القانون الأخلاقى الذى حدده له الله سقطت الحضارة وتخلفت الأمة . فالإنسان ، الذى ميزه الله بالعقل والحرية ، هو المسئول عن مصيره فى الكون . وهنا أيضا كان "المنهج" أكثر تقدمًا ، ولكنه لم يكن منهجًا علميًا متكاملاً .

ثم تقدمت الدراسات التاريخية وقطعت شوطًا كبيراً على أيدى المؤرخين المسلمين فظهرت دراسات متقدمة من حيث محتواها المعرفى من ناحية ، ومن حيث "منهج البحث" من ناحية أخرى . وتبلورت فكرة التاريخ الإسلامية فى نظرية ابن خلدون وفى كتابات المؤرخين الذين كتبوا عن تاريخ الكتابة التاريخية وأنماطها من أمثال الكافيجى والسخاوى . فضلاً عن الحوليات وكتب التاريخ بأنماطها المختلفة .

أما فى الغرب فإن الدراسات التاريخية بدأت تأخذ مسارها منذ نهايات القرن الثامن عشر ، وواصلت تقدمها عبر «القراءة العنصرية» ، ثم «القراءة الاستعمارية» للتاريخ لكى تصل فى نهاية الأمر إلى

مستوى راق ومتقدم . وبذلك تقدمت المعرفة التاريخية فى تراكمها المعرفى من ناحية، وتطور منهج البحث فى الدراسات التاريخية من ناحية أخرى . وقد حدثت فى نصف القرن الأخيرة ثورة صامتة فى مجال الدراسات التاريخية تخطت كل حدود الماضى : فمن حيث المجال المعرفى صارت هناك دراسات متخصصة فى فروع الدراسات التاريخية المختلفة، السياسية والإجتماعية والإقتصادية والثقافية والعسكرية وغيرها . ومن جيث المنهج تنوعت مناهج الدراسات التاريخية مابين المنهج الوصفى والمنهج التحليلى والمنهج الإحصائى والمنهج الكمى ، فضلاً عن استخدام الأساليب الفنية التى توفرها التكنولوجيا العصرية فى الدراسات التاريخية .

وهذه الدراسة تحاول رصد تطور الدراسات التاريخية : من حيث التراكم المعرفى وتطور مناهج البحث منذ البداية وحتى القرن التاسع عشر . وهى نواة لدراسة شاملة وتفصيلية أرجو أن يعيننى الله على إنجازها والله الموفق والمستعان .

دكتور قاسم عبده قاسم

الهرم سبتمبر ١٩٩٩



القسم الأول

فى ماهية التاريخ



ماهية التاريخ

تعريفات (المعنى اللغوى - المعنى الاصطلاحى) - أركان الظاهرة التاريخية - الإنسان والتاريخ : علاقة جدلية) - ضرورة الدراسة التاريخية .

يقال إن المؤرخين غير واثقين تماماً من قدرتهم على تحديد ماهية التاريخ بالضبط . ويقال أيضاً إن الفلاسفة أكثر استعداداً للكلام عما يفعله المؤرخون أكثر من استعداد المؤرخين أنفسهم لتحديد ماهية العمل الذى اضطلعوا به[1] ويعنى هذا ، ببساطة أن التاريخ علم متنوع المشارب والمقاصد ، معقد ومركب ومحير ؛ شأنه فى ذلك شأن البشر الذين يهتمّ التاريخ بتسجيل فعالهم . وعدم قدرة المؤرخين ، وغيرهم ، على التحديد الدقيق لكلمة «تاريخ» ينبع من حقيقة أن التاريخ مثل الأدب ، والفلسفة والفنون ؛ طريقة للنظر إلى التجربة الإنسانية - سواء فى حياة الأفراد الذين يشكلون أجزاءها ، أو إلى حياة المجتمع الذى يمثل المجموع .

---

(١) Arthur Marwick, The Nature of history (Macmillan London 1973) p. 10; Donald V. Gawronski, History, Meaning and Method (U.S.A. 1969), pp. 1-ff .

ويرى كولينجوود أنه على الرغم من الاختلاف بين الناس في إجاباتهم على السؤال المتعلق بماهية التاريخ «فإنهم متفقون فيما بينهم إلى درجة كبيرة فيما يختص بالإجابة عن هذه الأسئلة ، وهو إتفاق يبدو أكثر وضوحا كلما قيست هذه الإجابة بمقاييس الدقة العلمية التى تستبعد أية إجابة يدلى بها غير المتخصصين في الموضوع . إن مثل التاريخ كمثل فلسفة الأديان أو التاريخ الطبيعى ، فى أنه يمثل لوناً خاصاً من ألوان التفكير.. »[١] .

وعلى الرغم من أن أنماطاً مختلفة من الناس تستخدم كلمة «تاريخ» فى مناسبات مختلفة وفى ظروف متباينة ، فإن كل فريق منهم قد يقصد بالكلمة نفسها معنى يختلف عن المعنى الذى يقصده الفريق الآخر . ومن سوء الحظ أننا لانجد فى لغتنا العربية كلمات أخرى بديلة تخدم هذه المعانى المتنوعة لكلمة «تاريخ» ومن ثمّ ؛ فإننا نجد أنفسنا بالضرورة فى مواجهة سؤال بطرح نفسه ، ماهو التاريخ ؟

يبدو منطقيا أن نحاول - بداية - أن نتعرف على المعنى اللغوى لكلمة تاريخ . وذلك لأن هذه الكلمة تثير مشكلات حول معناها اللغوى ومدلولها فى اللغة العربية ، كما أن نظائرها فى اللغات الأوربية تثير مشكلات متشابهة ، ولأن الكلمة تحمل عدة معان ، متباينة أحيانا ومتقاربة أحياناً أخرى . وقد عرف التراث التاريخى العربى هذه المشكلة

---

(١) ر. ج. كولنجوود ، فكرة التاريخ (ترجمة محمد بكير خليل ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٨م) ص٣٩ .

التى أثارتها كلمة "تاريخ" وهل هى كلمة عربية أصلا أم أنها كلمة معربة؟[١] .

وكلمة «تاريخ» فى اللغة العربية تعنى عدة أشياء . وأوضح السخاوى هذا التعدد فى معانى الكلمة فى كتاب الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ؛ إذ يقول «.. التاريخ فى اللغة هو الإعلام بالوقت ، يقال أرخت الكتاب وورخته ؛ أى بينت وقت كتابته . قال الجوهرى : التاريخ تعريف الوقت والتوريخ مثله ، يقال : أرخت وورخت وقيل اشتقاقه من الأرخ ، بفتح الهمزة وكسرها ، وهو صغار الأنثى من بقر الوحش لأنه شئ حدث كما يحدث الولد . وقد فرق الأصمعى بين اللغتين ، فقال : بنو تميم يقولون ورخت الكتاب توريخا ، وقيس تقول أرخته تأريخا ، وهذا يؤكد كونه عربيا . وقيل إنه ليس بعربى محض بل هو معرب مأخوذ من «ماهروز» الفارسية (ماه تعنى القمر ، وروز اليوم) قال أبو الحسن الجواليقى فى كتابه «المعرب من الكلام الأعجمى» : يقال إن التاريخ الذى يؤرخه الناس ليس بعربى محض وإنما أخذه المسلمون عن أهل الكتاب وتاريخ المسلمين أرخ من سنة الهجرة فى خلافة عمر رضى الله عنه . قال أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب فى كتاب الخراج :

---

(١) السخاوى ، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (تحقيق فرانز روزنتال ، ترجمة التعليق دكتور أحمد صالح العلى ، بغداد ١٩٦٣) ، ص١٤-ص١٦ ؛ حاجى خليفة، كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، جـ١ (استنبول ١٩٤١م) ، ص٢٧١ . وقد أشار كل منهما إلى هذا الخلاف الذى شغل المؤرخين العرب الأوائل حول أصل كلمة تاريخ .

تاريخ كل شئ آخره فيؤرخون بالوقت الذى فيه حوادث مشهورة . ونحوه قول الصولى : تاريخ كل شئ غايته وقته الذى ينتهى إليه زمنه ، ومنه قيل لفلان تاريخ قومه ؛ إما لكون إليه المنتهى فى شرف قومه كما قال المطرزى ، وذلك بالنظر لإضافة الأمور الجليلة من كرم أو سخاء أو نحوهما إليه..»[١] .

هذا هو التعريف اللغوى لكلمة «التاريخ» كما عرفها العرب المسلمون ، ويتضح من النص الذى اقتبسناه عن السخاوى أن الكلمة قد أثارت جدلا بين القدماء حول أصلها ، وربما يكون السبب فى ذلك راجعا إلى حقيقة أن كلمة «تاريخ» لم ترد فيما وصل إلينا من الشعر الجاهلى، كما أنها لم ترد فى آيات القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية[٢] ويستفاد من النص السابق أن أصحاب الرأى القائل بعروبة اللفظ يجعلون اشتقاقه من الأرخ ، بيد أن بعض الباحثين المحدثين لايعتقدون بصحة هذا الرأى .[٣] أما أصحاب الرأى القائل بأن اللفظ معرب فيعتقدون بأنه مأخوذ عن عبارة «ماه روز» الفارسية ، وتبدو العلاقة بين العبارة الفارسية والكلمة العربية واهية بالقدر الذى لايسمح لنا بأن نوافق

---

(١) السخاوى ، الإعلان بالتوبيخ ، ص١٤ – ص١٦ .

(٢) عفت محمد الشرقاوى ، أدب التاريخ عند العرب (القاهرة ١٩٧٦) جـ١ ، ص٢٤٩ .

(٣) حسين نصار ، نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى (النهضة العربية ، ط. ثانية ١٩٦٦) ، ص١٧٠ ، عفت الشرقاوى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص٢٤٩ .

على أن الكلمة مأخوذة عن الفارسية . وربما يكون هذا الرأى قد خلط بين الاشتقاق اللغوى ، الذى نستبعده ، وبين ماترويه المصادر التاريخية من أن بداية اتخاذ المسلمين من سنة الهجرة بداية لتقويمهم كان بناء على نصيحة الهرمزان ، ملك أهواز ، الذى وقع فى أسر المسلمين ثم أسلم على يد عمر بن الخطاب[1] . وربما يكون سبب هذا الخلط أيضا أن كلمة «ماه روز» الفارسية توحى بأن المراد منها هو تحديد الشهر[2] .

ويرى بعض الباحثين المتخصصين أن كلمة تاريخ لفظ عربى قديم ، وأنها لفظ مشترك فى اللغات السامية ، تلوح القرابة بينه وبين كلمة ياريح العبرية ومعناها القمر وكلمة يرح التى تعنى الشهر ، ومن ثم فإن الاستخدام الأول للكلمة بدأ للدلالة على الشهر[3] . وهو أمر نراه منطقيا فى ضوء الحقيقة القائلة بأن العرب ، مثل العبرانيين ، استخدموا التقويم القمرى الذى ما نزال نعتمد عليه فى التقويم الهجرى حتى اليوم، كما أن اللغة العربية واللغة العبرية تنتميان إلى عائلة لغوية واحدة مما يرجح أن تكون الكلمة عربية أصلا .

---

(١) أشار الطبرى (تاريخ الرسل والملوك ، جـ٤ ص٣٩ ، ص٢٠٩) ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، حـ١ ، ص٥ - ص٦) إلى مختلف الروايات المتعلقة باتخاذ سنة الهجرة بداية للتاريخ العربى الإسلامى .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة «تاريخ» .

(٣) حسين نصار ، نشأة الكتابة الفنية ، ص١٧٠ .

وعلى أية حال ، فإن كلمة تاريخ لم تثبت على معناها القديم وهو الشهر أو تحديد الشهر بالقمر ، بل أخذت فى التطور كما أخذ مدلولها فى الإتساع بحيث صارت تستخدم للدلالة على عدة معانى مختلفة . ففضلا عن المعانى التى أشار إليها السخاوى فى الفقرة التى ذكرناها آنفا ، استخدمت الكلمة فى التراث العربى الإسلامى للدلالة على التاريخ العام ، أو تدوين الحوادث التاريخية الهامة . ومن ثم صار اللفظ يدل على الحادث التاريخى كما وقع ، ثم رواية هذا الحادث بتحديد الإطار الزمنى الذى وقع فيه ؛ وهو ماتدل عليه أسماء المدونات التاريخية الإسلامية مثل «تاريخ الرسل والملوك» للطبرى و«تاريخ الإسلام» للذهبى وغيرهما . ومن ناحية أخرى فإن كلمة «التاريخ تستخدم فى لغتنا العربية أيضا للدلالة على مسيرة البشر الحضارية منذ فجر الوجود الإنسانى على سطح هذا الكوكب ، وكثيرا مانسمع عبارات تقول «إن التاريخ شاهد على مر العصور» أو «هذا حدث يسجله التاريخ» .. وما إلى ذلك من العبارات التى تستخدم للدلالة على هذا المعنى بعينه من معانى كلمة تاريخ .

كذلك تستخدم الكلمة بمعنى دراسة المسيرة الحضارية لبنى الإنسان ، أو الماضى الإنسانى فى نظام أكاديمى من أجل الكشف عن غموض هذا الماضى لتحقيق المعرفة بالذات الإنسانية . والمثال على ذلك واضح حين نقول «قسم التاريخ بكلية الآداب» ونعنى بقولنا القسم الذى يدرس التاريخ الإنسانى فى نظام دراسى أكاديمى .

وهناك استخدام حديث للكلمة يعنى دراسة التدوين التاريخى ، أى دراسة تاريخ كتابة التاريخ وتطورها والتراث الذى خلفه المؤرخون فى هذا

المجال على مر العصور . وهو فرع من الدراسة يلقى اهتماما متزايدا فى العالم اليوم . وفى عالمنا العربى بدأ هذا الفرع من الدراسات التاريخية يحظى بقدر متزايد من الاهتمام يوما بعد يوم[١] .

هذه ، بشكل عام ، هى أهم المعانى والمدلولات اللفظية لكلمة «تاريخ» فى لغتنا العربية فضلا عن المعنى الدارج للكلمة الذى يفيد تحديد الوقت ، مثل «تاريخ الميلاد» أو تاريخ اليوم . ولا بأس من أن نكرر أن هذا الخليط من المعانى والمدلولات ، الذى تحمله كلمة واحدة ، إنما يؤدى إلى الحيرة في كثير من الأحيان . وفى هذا الصدد قد يكون من المفيد أن نحاول تحديد مفهوم إصطلاحي ، وإن كنا نرى أن هذا أمر لايمكن تحقيقه بشكل حاسم ، وأن هذه المصطلحات لن تكون واضحة بذواتها ، وإنما سوف تتضح من خلال السياق الذى تستخدم فى إطاره .

وهنا ينبغى أن نشير إلى اثنين من رواد هذه الدراسة فى تراثنا العربى الإسلامى : أحدهما حاول أن يضع تعريفا جامعا مانعا للتاريخ وقواعد عامة ، أو قوانين تفسر الحركة التاريخية ، ومنهجا لكتابة التاريخ ودراسته وتفسيره ، على حين حاول الثانى أن يكتب تاريخا للتاريخ . والأول هو «ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون» ، أما الثانى فهو «شمس الدين عبد الرحمن السخاوى» .

---

(١) هناك عدد متزايد من هذه الدراسات والبحوث التى كتبها مؤرخون وباحثون عرب حول هذا الموضوع سوف نضع ثبتاً كاملاً بها فى قائمة المصادر والمراجع فى آخر الكتاب .

ويرى ابن خلدون أن التاريخ «.. فى ظاهره لايزيد على أخبار الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأول ، تنمو فيها الأقوال ، وتضرب فيها الأمثال ، وتؤدى إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال ، واتسع للدول فيها النطاق والمجال ، وعمروا فى الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال . وفى باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها ، عميق ..»[١] .

هكذا يعرف لنا ابن خلدون التاريخ الذى يبدو فى ظاهره وكأنه مجرد رواية أخبار الأولين وقصص الدول والحضارات التى قامت فى الماضى ومتابعة نشاط بنى الإنسان من خلال الرواية التاريخية التى قد تكون مادة للمسامرة فى الأندية والمحافل ، أو حلية ثقافية تزدان بها الرؤوس. والتاريخ فى حقيقة أمره نظر وتحقيق ، أى تأمل ودراسة وفحص مختلف أوجه النشاط البشرى فيما مضى من العصور بقصد رصد أسباب الظواهر لتاريخية المختلفة ، ومحاولة كشف جوانب العلاقة السببية فى طيات الأحداث التاريخية ، ورصد بدايات هذه الأحداث ومعرفة أصولها. ويخلص ابن خلدون من هذا إلى أن التاريخ أصيل فى الحكمة وعريق . ولما كانت الحكمة فى لغة العرب هى أسمى مراتب المعرفة فإن ابن خلدون قد فهم التاريخ باعتباره ضرورة حضارية لفهم الإنسان من خلال تاريخه ، فما الحكمة سوى المرتبة العليا فى مجال المعرفة ، والمعرفة الحقة هى معرفة الإنسان بذاته لأنها تدله على معرفة خالقه .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، طبعة كتاب التحرير (القاهرة ١٩٦٦م) ، ص٩ .

والتاريخ عند ابن خلدون ، أيضا ، أداة تمكننا من كشف مراحل تطور البشرية «حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذى هو عمران العالم ، ومايعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات» كذلك يمكن أن يكون التاريخ ، في رأى ابن خلدون ، أداة للكشف عن صراعات الجماعات البشرية ، وما يترتب على ذلك من قيام الدول المختلفة «.. وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الدول ومراتبها .. أما ميدان التاريخ فهو البحث فى كافة مظاهر النشاط الإنسانى .. فى الكسب والمعاش والعلوم والصنائع ..[1] » فضلا عن حساب دور البيئة والظروف الطبيعية المحيطة بمجرى التطور البشرى . كما أدرك ابن خلدون أهمية البيئة فى صياغة الظاهرة التاريخية باعتبار أن البيئة مسرح العملية التاريخية . والتاريخ بهذا المفهوم الذى أبرزه ابن خلدون يعتبر استكشافا كليا لتطور البشرية منذ الخليقة ، ومحاولة لحل اللغز المتعلق بالوجود الإنسانى فى الكون ، فضلا عن مصير الإنسان فى الحاضر ، بل وفى المستقبل أيضا .

هذه ، بشكل عام ، حدود المعنى الاصطلاحى ، أو المفهوم الذى تدل عليه كلمة تاريخ كما أدركها ابن خلدون ، وهى تكشف عن مدى فهم المسلمين للتاريخ كعلم ، وعن مدى إدراكهم لوظيفته فى خدمة المجتمع البشرى . وإذا كانت الآراء التى طرحها ابن خلدون فى مقدمته الشهيرة

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٤ .

تمثل الفكر التاريخى عند العرب المسلمين فى قمة تطوره ، فإن لنا أن نختار مؤرخا آخر ضرب بسهم فى هذا المجال ، وحاول أن يكتب لنا تاريخا للتاريخ .

ذلكم هو المؤرخ «شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى (ت٩٠٢ هجرية /١٤٩٧ ميلادية) الذى ألف كتابا كرسه للدفاع عن علم التاريخ وأسماه «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ» وفى هذا الكتاب طرح السخاوى أفكاره الأساسية عن التاريخ كعلم ، وجدواه ، وضرورته كأداة حضارية . بيد أن الخلفية الثقافية للسخاوى كمحدث من جهة ، وحقيقة أنه يندرج فى إطار «عالم الدين - المؤرخ» من جهة ثانية ، جعلته يؤكد أهمية التاريخ وجداوه باعتباره فرعا من فروع الثقافة المساعدة فى خدمة العلوم الدينية . والحقيقة أن كتاب «الإعلان بالتوبيخ» يعكس وجهة نظر عالم الدين أكثر مما يكشف عن رؤية المؤرخ. وتتحدد أبعاد فكرة التاريخ لدى شمس السخاوى من خلال أفكاره التى يطرحها فى كتابه عن المعنى الذى يدل عليه اصطلاح تاريخ، إذ يقول : « .. وفى الاصطلاح التعريف بالوقت الذى تضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة ووفاة وصحة وعقل وبدن وحج وحفظ وضبط وتوثيق وتجريح ، وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم فى ابتدائهم وحالهم واستقبالهم .. »[١] .

---

(١) السخاوى ، الإعلان بالتوبيخ ، ص١٦ .

هذه هى الوظيفة الأول لعلم التاريخ ، وهى وظيفة محدودة للغاية ، كما يراها السخاوى . ذلك أنه يجعل من التاريخ أداة لتتبع سير الرواة والأئمة كغاية من أهم غايات هذا العلم . بيد أنه لايهمل حوادث التاريخ الأخرى التى يراها تحتل درجة أدنى فى أهميتها من الدرجة التى تحتلها أحوال الرواة والأئمة . وحين يريد السخاوى أن يسوق لنا تعريفا جامعا مانعا لمصطلح التاريخ يقول « .. والحاصل أنه فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت ؛ بل عما كان فى العالم .. »[١] هذا التعريف إنما يكشف عن مدى ضيق فكرة السخاوى عن التاريخ ومحدودية رؤيته لهذا الفرع من فروع المعرفة الإنسانية . فالتاريخ عند السخاوى «فن» ، أى ضرب من ضروب المعرفة ، مهمته البحث عن وقائع الزمان ؛ أى محاولة رصد كل ماحدث فى إطار الزمن الإنسانى من أحداث . وذلك من أجل تحديد موقعها المكانى «التعيين» وموقعها الزمانى «التوقيت» . ويوحى هذا التعريف الذى ساقه لنا شمس الدين السخاوى بأن وظيفة التاريخ قاصرة على تحديد موقع الحادثة التاريخية زماناً ومكاناً ؛ على الرغم من أنه يشى بشمولية علم التاريخ .

والفارق واضح جلى بين موقف ابن خلدون وتعريفه للتاريخ وموقف السخاوى . وعلى الرغم من أن الأساس الذى تقوم عليه فكرة التاريخ فى التراث العربى يرتكز على فكرة التاريخ فى القرآن ، والتراث التاريخى لدى الشعوب العربية فى فترة ماقبل الإسلام ؛ فإن البنية

---

(١) الإعلان بالتوبيخ ، ص١٧ .

الثقافية الذاتية لكل من ابن خلدون والسخاوى تكمن وراء هذا الفارق . بيد أن موقف المؤرخين العرب فى فترة ازدهار الثقافة العربية وتفوقها ، يجمع بين ما طرحه ابن خلدون وما طرحه السخاوى . والواقع أن الفكر التاريخى العربى قد جمع فى طياته بين آراء الاثنين . وإذا ما تتبعنا التعريفات التى ساقها المؤرخون العرب فى مقدمات كتبهم لاكتشفنا أنها تقترب من آراء ابن خلدون والسخاوى بشكل أو بآخر . وهكذا ، فإن مفهوم كلمة تاريخ فى التراث التاريخى العربى قد تبلور فى كتابات ابن خلدون الذى امتلك القدرة على صياغة المعانى والمفاهيم السائدة ، والتى كان هو نفسه نتاجاً لها ، بصورة نظرية شاملة .. ومن ناحية أخرى ظلت الكلمة تمثل إشكالاً معرفياً - سواء على المستوى اللغوى أو الاصطلاحى - على نحو ما أوضح لنا شمس الدين السخاوى .

وإذا كانت الثقافة العربية قد فقدت مكانتها الرائدة فى العالم نتيجة لما عانته فى عصور التردى والضعف والتبعية ، بحيث لم تعد قادرة على الاحتفاظ بقوى الدفع الإبداعية فيها ؛ فإن ذلك أدى بنا إلى أن نتخذ من الثقافة الأوربية ثقافة مرجعية فى كثير من الأحوال . وأدى هذا الموقف ، بدوره إلى مزيد من التخبط والحيرة حين رحنا نبحث عن حلول مشكلاتنا الثقافية لدى الأوربيين على الرغم من خصوصية التاريخ كممارسة ثقافية ذات وظيفة حضارية . ويجدر بنا أن نحاول تتبع المفهوم الأوربى لهذه الكلمة لكى نكتشف الفارق بين استخدام التاريخ فى الحضارة العربية الإسلامية واستخدامه فى التراث الغربى الأوربى ، ونتلمس الوسيلة المثلى لاستخدام هذا العلم فى خدمة الحاضر والمستقبل العربى .

والكلمة المناظرة لكلمة «تاريخ» في اللغات الأوربية المعاصرة تعود في أصلها إلى كلمة «إيستوريا» اليونانية التي استخدمها هيرودوت (٤٨٤-٤٢٥ ق.م) عنوانا لكتبه التسعة . وهذه الكلمة تعني الاستفسار أو التقصي من أجل الفهم ؛ مما جعل المعنى يتركز على خاصتين من خواص الفكر اليوناني القديم في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد ؛ هما المشاهدة والتساؤل [١] . وبذا نزل هردوت بالتاريخ من مجرد سرد لسير الآلهة وحكومات الآلهة إلى علم إنساني يهتم ببني الإنسان ونشاطهم على الأرض . ولهذا السبب يعتبر هردوت إمام الدراسات التاريخية في التراث التاريخي الأوربي عامة . وحين استخدم هردوت كلمة «إيستوريا» عنواناً لكتبه التسعة التي كتبها عن تواريخ

---

(١) تتجلى أهمية هيرودوت في أنه أثبت أن للمعرفة التاريخية مكانة هامة على الرغم من الاتجاهات التي طبعت تفكير الإغريق في عهده والتي كانت تستند إلي نظرية تقول إن الحقائق الثابتة التي لا يدركها التغيير هي وحدها الخليقة بالمعرفة. ومعنى ذلك أن فكرة علم التاريخ فكرة فاشلة لأنها تهدف في الأصل إلى معرفة الظواهر التي يدركها التغيير . وهو ما جعل أرسطو يقول إن الشعر أقرب إلى العلم من التاريخ .

انظر : كولينجوود ، فكرة التاريخ ص٧٢ ، ص٧٧ ؛ أحمد بدوي ، هردوت يتحدث عن مصر (دار القلم - القلم ١٩٦٦) ص١٥ انظر أيضا :

M.I. Finley, The Portable Greek historians (New York, 14th ed. 1972), pp. 1-ff .

الشعوب التى احتكت باليونان القدامى ، ومنهم الفرس والمصريون ، استحق لقب إمام الدراسة التاريخية الأوربية .

ويعود التراث التاريخى لدى الغرب الأوربى فى معناه الواسع إلى كتابات هردوت ، ومن بعده ثوكيديديس (٤٥٥-٤٠٠ ق.م) وبوليبيوس (١٩٨-١١٧ ق.م) ، وليفيوس (٥٩ ق.م - ١٧ م) وتاكيتوس (٥٥ - ١٢٥ م) ، وبلوتارخ (٥٠ - ١٢٠م) وهؤلاء المؤرخون وغيرهم هم الذين كتبوا تاريخ الفترة الكلاسيكية - بشقيها اليونانى والرومانى - فى تاريخ الغرب الأوربى .

فحين صار الرومان سادة على عالم البحر المتوسط ورثوا حضارة صاغها من سبقوهم لاسيما من المصريين واليونانيين ، وفى مجال الثقافة كان اليونانيون هم أبرز المعلمين لسادة البحر المتوسط الجدد ؛ فورث الرومان كثيراً من المفاهيم الثقافية اليونانية القديمة وألبسوها ثوباً لاتينياً . وكان مفهومهم عن التاريخ من بين موروثاتهم ؛ فاستخدموا كلمة إيستوريا اليونانية فى حروف لاتينية Historia لكى تدل على المعنى نفسه . ومن هذه الكلمة اشتقت الكلمات الأوربية الحديثة مثل كلمة History الإنجليزية وكلمة Histoire الفرنسية .

وفى ظل الإمبراطورية الرومانية كان التاريخ مجرد إعداد للحياة السياسية والعسكرية . فقد كان التاريخ يدرس على هامش الأدب . وأرسى شيشرون - الخطيب الرومانى المفوه - القواعد التى يجب على الخطيب أن يلتزم بها عند روايته للتاريخ . وقد أعلى شيشيرون من شأن

البلاغة على حساب التاريخ الذى كان مجرد وسيلة يتوسل بها الخطيب السياسى لإقناع الناس . ولذا كان التاريخ آنذاك مجرد رواية الأعمال السياسية والعسكرية الجديرة بالذكر . أما وظيفة التاريخ الحضارية آنذاك ، فكانت حفظ ذكرى الأعمال المجيدة للقدماء حتى يقتدى بهم من يريد أن يتخذ مسارهم فى الحياة[١] وعلى الرغم من أن الكلمة التى تقابل كلمة «تاريخ» فى اللغات الأوربية الحديثة قد اشتقت من أصل واحد كما أوضحنا ؛ فإن المشكلة المتعلقة بالمفاهيم والمدلولات التى تتضمنها هذه الكلمة قد واجهت المؤرخين وفلاسفة التاريخ الأوربيين أيضاً . ومع أن بعض الباحثين قد نحتوا كلمة جديدة ؛ هى كلمة His-toriography (تدوين التاريخ) فى محاولة لتقليل حدة المشكلات الناجمة عن تعدد مفاهيم الكلمة الأصلية ؛ فإن المشكلات التى أثارتها هذه الكلمة الجديدة كانت إضافة للمشكلات القديمة لأن الباحثين لم يتفقوا على تحديد معنى ثابت لها حتى الآن .

ولايتفق المؤرخون على تحديد دقيق لمصطلح التاريخ . فهذا المجال معقد بدرجة تكاد تجعل من المستحيل الوصول إلى مصطلح يحظى بالموافقة الجماعية . ويمكن تعريف التاريخ بشكل فضفاض ، يتضمن أهم

---

(١) بيريل سمالى ، المؤرخون فى العصور الوسطى ترجمة قاسم عبده قاسم ، (دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٨٤) ، ص٢٣ – ص٢٤ ؛ أنظر أيضاً :

Harry Elmer Barnes, A history of Historical writing) 2nd ed. New York 1963),pp. 27-40; Arthur Marwick, The Nature of history, p. 26 .

عناصره الأساسية ، بأنه سجل للماضى ، أو على الأقل جزء من هذا الماضى . بيد أن هذا التعريف الذى يقترحه البعض لايمكن أن يكون تعريفا صحيحاً ، لأنه يبسط الأمر تبسيطاً مخلا للغاية . والتاريخ فى حقيقته دراسة أكثر تعقيداً بحيث يستحق تعريفاً أكثر تحديداً ودقة . حقيقة أن التاريخ دراسة طموحة ولكن هذا الطموح ليس راجعاً إلى مجرد إتساع العمق الزمنى لعمر كوكب الأرض الذى عاش عليه الإنسان وصنع تاريخه فى رحابه [١] . فالتاريخ لايهتم بالماضى على إطلاقه . فالواقع أن التاريخ يبدأ مع بداية حياة الإنسان على الأرض . وقد أخبرنا الجيولوجيون أن عمر كوكب الأرض يتراوح بين ثلاثة ملايين وأربعة ملايين سنة . أما الإنسان فى شكله البدائي Zinjanthropus فيقدر عُمره على الأرض بحوالى مليون وسبعمائه وخمسين ألف سنة [٢] . ويعنى هذا أن التاريخ لايهتم بالماضى سوى حين يتعلق هذا الماضى بالبشر ، وهو مايعنى أنه يهتم بفترة تعادل $\frac{١}{٢٠٠}$ تقريباً من عمر كوكب الأرض ككل ، ويترك ماعدا ذلك للجيولوجيين[٣] . وعلى هذا ينبغى أن نركز اهتمامنا على التاريخ من حيث كونه «سجلا» للماضى الإنسانى .

---

(١) Gawronski, History, Meaning and Method, p.1.

(٢) هناك آراء أخرى تقول : إن عمر الإنسان على الأرض أقدم من ذلك التاريخ : انظر

Gordon Childe, What Happened in History, (Pelican Books 1972), pp. 33-54 .

(٣) Gawronski, History Meaning and Method, p. 2.

وعلى الرغم من أن الإنسان لم يترك سجلات مكتوبة سوى منذ حوالى سبعة آلاف سنة فقط أو يزيد قليلاً ، فإن التاريخ يهتم بفترة أعمق مستعيناً بجهود علماء الآثار والأنثروبولوجيا فى هذا السبيل .

وإذا استطلعنا التعريفات التى ساقها المؤرخون وفلاسفة التاريخ والباحثون (سواء فى تراثنا العربى ، أو فى الغرب الأوربى) للتاريخ ، سنجد أن هناك اتفاقاً على أن الماضى الإنسانى وتطور المسيرة البشرية هو موضوع التاريخ الذى يستخدم مناهجه الاستردادية لكشف النقاب عن الماضى من أجل تحقيق معرفة الإنسانية بذاتها . ومع هذا فإننا ينبغى أن نشير إلى أن الاعتماد على المعنى اللغوى ، فقط ، لكلمة «تاريخ» قد يوقعنا فى منزلق الخطأ . ذلك أن اللغة وإن كانت ملكية عامة لنقل الأفكار والمعانى بين الأشخاص والأجيال ، فإنها تكون فى بعض الأحيان ملكية خاصة ؛ بل شديدة الخصوصية . لاسيما إذا كانت الكلمة المستخدمة تحمل أكثر من معنى كما هو الحال مع كلمة «تاريخ» وعلى هذا فإن المعنى الاصطلاحى للكلمة يمكن أن يكون الحل المناسب لهذه المشكلة .

بيد أن محاولة وضع مصطلح التاريخ فى عصرنا الحالى ينبغى أن تأخذ فى الحسبان ثلاثة مستويات من المعانى لكلمة «تاريخ» ، وكل معنى من هذه المعانى يختلف بقدر أو بآخر عن غيره . ولكن الماضى الحضارى للبشرية يجمع بين هذه المستويات أو المعانى الثلاثة للكلمة . وتستخدم كلمة تاريخ بهذه المعانى فى أوساط المؤرخين والدارسين وفلاسفة التاريخ ؛ على الرغم من أن هناك عدة استخدامات دارجة أخرى للكلمة . ويمكن أن نشير إلى المستويات الثلاثة لمعنى مصطلح التاريخ على النحو التالى :

١- غالبا مايستخدم هذا مصطلح التاريخ للدلالة على المجمل الكلى للنشاط الإنسانى ، أى كل ما أنجزه البشر من أعمال طوال تاريخهم الذى يبدأ بوجود الإنسان على كوكب الأرض ، وهو هنا بمثابة لفظ غامض يستخدم للإشارة إلى الماضى الإنسانى بأسره ، كما حدث بالفعل. وقد يكون من المفيد أن نستغنى عن هذا الاستخدام لكلمة تاريخ التى كثيراً ما يتخذ الساسة منها مطية يسيئون استخدامها فى سبيل تحقيق مآربهم . بيد أننا لسوء الحظ لانجد لها فى اللغة بديلا . وهذه الكلمة لاتدل على شئ سوى العملية الزمنية التتابعية (الكرونولوجية) لشئون العالم . وإذا ما أخذنا بهذا المعنى الشامل للكلمة لصار كل فعل إنسانى ، بالضرورة ، فعلاً تاريخياً .. ويتمثل خطر الخطأ هنا فى أن اللغة ليست وقفا على الأكاديميين والعلماء الذين يمكنهم الاتفاق على تحديد المصطلح ، وإنما يستخدمها الجميع وفقاً لمفاهيمهم ، ومن هنا تأتى خطورة كلمة «التاريخ» ذات المعانى المتعددة.

٢- أما الاستخدام الثانى ، والأكثر شيوعاً لمصطلح التاريخ ، فهو ذلك الذى ينظر إلى التاريخ باعتباره سجلاً للحوادث ، لا باعتباره الحوادث نفسها . وفيما يتعلق بهذا المعنى الذى يلقى قبولاً أكثر ، فإننا يمكن أن نقدم تعريفين فرعيين :

(أ) التاريخ من حيث هدفه ، هو محاولة معرفة كل شئ فعله الإنسان أو فكر فيه ، أو تطلع إليه بأمل منذ وجد فى هذا الكون .

(ب) والتاريخ من الناحية الموضوعية يمكن اعتباره سجلاً للأحداث التى وقعت داخل إطار الوعى الإنسانى منذ بداية وجود الإنسان ذاته .

وهنا يصبح التاريخ مصطلحاً دالاً على صناعة التاريخ ، أى محاولة الإنسان لوصف ماضيه وتفسيره . وهذا هو نوع التاريخ الذى نقصده حين نتحدث عن التاريخ كضرورة اجتماعية . وهو يقترب من المفهوم القرآنى الذى قام عليه التاريخ عند المسلمين [١] ، والذى يطلب من المؤمنين أن يسيروا فى الأرض ، وينظروا ويتأملوا الأحداث الماضية لكى يجدوا لها تفسيراً فى حاضرهم ويبصرهم بمستقبلهم وهذا المعنى أيضا قريب إلى مفهوم الكلمة اليونانية التى تعنى البحث والاستقصاء .

إلا أن النظر إلى التاريخ باعتباره سجلاً لنشاطات الجنس البشرى الماضية جعل البعض يرون التاريخ على أنه فرع من فروع الأدب لا سيما فى العصور السابقة . غير أن جهود العلماء وفلاسفة التاريخ على مدى سنوات عديدة جعلت من هذا التاريخ علماً إنسانياً يهتم بإعادة بناء الأفكار والأعمال التى أنجزها البشر فى الماضى ، بقدر المستطاع ، اعتماداً على المنهج التاريخى ذى الصفة الاستردادية .

وقد انبعثت فكرة أن التاريخ فرع من فروع الأدب من حقيقة أن التاريخ كان محبوساً فى نطاق ما هو مكتوب ، سواء فيما تبقى من كتابات المؤرخين على مر العصور ، أو فى السجلات والوثائق التى حفظتها لنا الأيام . غير أن الاكتشافات الهامة التى توصل إليها علم الآثار مدت نطاق معرفتنا التاريخية بالنشاط الإنسانى إلى أغوار سحيقة فى الماضى لم يكن ممكنا معرفة شئ عنها اعتماداً على

---

(١) جاء فى قوله تعالى (سورة العنكبوت : آية ٢٠) ﴿قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ، إن الله على كل شئ قدير﴾ .

المصادر المكتوبة وحدها[١]. وعلى أية حال ، فإن علم الآثار وعلم الأنثربولوجى قد أمدنا بقدر من المعلومات عن سائر وجوه حياة الإنسان الأول يفوق بكثير المعلومات التى وفرتها لنا المصادر الأدبية عن فترات أكثر حداثة. ومن ثم لم يعد مقبولاً أن نستخدم الاصطلاح المضلل ما قبل التاريخ Pre-History ؛ اللهم إلا إذا كان استخدامه بقصد الدلالة على الفترة الغامضة المحيرة التى شهدت البدايات الأول للتطور الإنسانى والتى لا يتوفر لدينا عنها أية معلومات إيجابية ، أو إذا كان المرء يقيد مفهومه للتاريخ فى إطار كونه فرعاً من فروع الأدب . ولذا يجب أن نضع عبارة «ما قبل التاريخ المكتوب» محل عبارة «ما قبل التاريخ» . وذلك لأن العبارة الأخيرة ، فى حقيقتها ، تصف لنا فترة من فترات التاريخ الإنسانى كان لعلم الآثار فضل إزاحة النقاب عن خباياها التى لم تكشفها لنا المصادر الأدبية .

٣- وثمة استخدام ثالث لمصطلح التاريخ باعتباره علماً ونظاماً تعليمياً ، إذ يقول المرء مثلاً : قسم التاريخ أو أساتذة التاريخ . وهذا الاستخدام حديث جداً فى الغرب الأوربى وأمريكا[٢] . وعن أوربا

---

(١) Gordon Childe, What happened in history, pp. 13-ff.; Harry Elmer Barnes, A history of historical writing, pp. 384 .

(٢) لم يكن التاريخ يدرس كمادة مستقلة سواء فى العصور الوسطى أو فى العصور القديمة ، بل كان يدرس باعتباره ملحقاً لمواد أخرى .

عن هذا الموضوع انظر : بيريل سمالى ، المؤرخون فى العصور الوسطى ، ص٢٢- ص٢٦

وأمريكا نقلت جامعاتنا نظام أقسام التاريخ (وما نزال حتى الآن نعتبر هذا النظام نظاماً مرجعياً لنا فى تقسيم الدراسة التاريخية ، على الرغم من الفشل والمشكلات الكثيرة التى توجب علينا البحث عن صيغة أفضل تتوافق مع تراثنا وشخصيتنا الثقافية) إلا أن المتأمل فى تاريخ التعليم العربى الإسلامى سيجد أن المسلمين قد عرفوا التاريخ كنظام تعليمى بعيد الجذور ؛ فقد عمل كثير من علماء المسلمين بتدريس التاريخ ضمن العلوم التى عرفتها المدرسة الإسلامية ، ومُنحت إجازات تفوق الحصر فى كتب التاريخ بشتى أنماطه . وتقدم لنا المصادر العربية الإسلامية العديد من الأدلة التى توضح مدى الرقى الذى وصل إليه تعليم التاريخ (فى إطار ظروفه التاريخية الموضوعية آنذاك) ، كما أننا نجد فى المدرسة التاريخية المصرية التى ازدهرت فى القرون السابع والثامن والتاسع من الهجرة (١٣-١٥م) وفى أعلام هذه المدرسة من أمثال ابن فضل الله العمرى ، وابن خلدون ، والمقريزى وابن حجر ، والعينى ، وابن تغرى بردى ، والسيوطى والسخاوى ، وابن إياس .. وغيرهم ، دليلاً على نضج وتقدم التاريخ كدراسة وعلم مستقل فى تلك الأثناء[١] .

وينبغى أن نشير إلى أن التاريخ كعلم ونظام تعليمى أكاديمى يرتبط كثيراً بالاستخدام الثانى الذى يرى فى التاريخ سجلاً لما مضى من أعمال البشر ، وغالباً مايستخدم الباحثون المعنيين تحت لفظ واحد .

---

(١) انظر القسم الثانى من هذا الكتاب .

وعلى الرغم من الحيرة والارتباك اللذين يمكن أن يسببهما لفظ التاريخ ، فإن الواقع يشير إلى أن التسمية المطاطة ، التى تحتمل أكثر من معنى وأكثر من تفسير سمة من سمات العلوم الإنسانية كلها تقريباً، بل إن هذه الحقيقة قد تنسحب أحياناً على مسميات العلوم الطبيعية .

وقد أصبح الشائع حالياً التفريق بين كلمة التاريخ History كتعبير دال على مسيرة الإنسان الحضارية على سطح كوكب الأرض منذ الأزل، وعبارة تدوين التاريخ Historiography كتعبير عن العملية الفكرية الانشائية التى تحاول إعادة تسجيل وبناء وتفسير مسيرة الإنسان على كوكبه (وهنا نجد أن هذه العبارة تتضمن الاستخدامين الثانى والثالث السابق ذكرهما ، أى التاريخ بوصفه سجلا للماضى وبوصفه نظاماً تعليمياً أكاديمياً) فالتاريخ أشبه ما يكون بنهر هائل متدفق تحوى مياهه كل تفاصيل نشاط وسعى وأفكار وآمال وتطلعات وأحاسيس ونجاح وإحباطات بنى الإنسان منذ الخليقة . أما تدوين التاريخ ، أى العملية الفكرية الإنشائية ، فليست سوى مشهد يلتقطه المؤرخ من الماضى القريب أو الماضى البعيد ويحاول من خلال مصادره المتاحة ، ومنهج علم التاريخ ذى الصفة الاستردادية ، وخياله العلمى كمؤرخ ، أن يعيد تركيبه . فهو هنا مجرد تأليف محدد لمشهد من مشاهد تفوق الحصر يضمها نهر التاريخ [1].

---

(١) حول هذا الموضوع دارت مناقشات كثيرة لم نشأ أن نعرض لها فى هذا الكتاب ، ولكننا نحيل القارئ إلى ثبت المصادر والمراجع ليختار منها الكتب التى تناولت هذا الموضوع بإسهاب .

وهكذا ، نجد أنفسنا فى النهاية قد خرجنا دون تحديد «جامع مانع» للتاريخ . والواقع أن هذه مسألة تبدو مستحيلة بسبب طبيعة التاريخ نفسه من ناحية ، وبسبب عجز اللغة عن التفريق الحاسم بين الاستخدامات المختلفة لمصطلح التاريخ من ناحية أخرى . ولكننا فى الوقت نفسه توصلنا إلى حقيقة هامة مؤداها أن ميدان علم التاريخ ومجال اهتمامه هو مسيرة البشر الحضارية فى الماضى . فالمؤرخ ينجز مهمتين أخريتين يجب وضعهما فى الاعتبار عند محاولة صياغة أى تعريف لمصطلح التاريخ : فعلى المؤرخ أن يفسر الحقائق التى توصل إليها بطريقة منهجية وعقلانية ، كما ينبغى عليه أيضاً أن يحاول استكشاف النماذج والاتجاهات ، أو أن يصوغ التعميمات التى تشرح سلوك الناس والأمم عبر الزمن . فإذا لم يقم المؤرخ بهاتين المهمتين فإنه لن يكون مؤرخاً ، وإنما سيكون مجرد كاتب حولية أو يوميات أو جامع للأخبار والروايات التاريخية ، وبذلك تخلو صفحات التاريخ الإنسانى من أى مغزى أو دلالة .

فالمؤرخ يهتم دائماً بالبحث عن العوامل الأساسية ، أو مبادئ الوجود الإنسانى ، من خلال دراسة المادة التاريخية التى تتغير باستمرار عبر الزمان ، وذلك لأن المؤرخ يبحث عن الأسباب والمغزى الكامن تحت الأحداث التى يكشف عنها . وقد أشار المؤرخ الأوربى اللامع «يوهان هويزنجا» إلى هذا المفهوم بأن أوضح أن التاريخ نشاط عقلى ولكنه يقوم على أرضية من الحقائق الواقعية[١] . ويعنى هذا أن المؤرخ قد

---

(١) Johan Huizinga, "A Definition of the concept of History" Philosophy of history : Essays Presented to Earnst Cassirer, eds. Raymond Klibansky and H. Y. and Row 1963); Gawrnski, op. cit; pp. 2-3.

«يفلسف» الماضى لكى يشرحه على نحو أكثر وضوحاً ، وفى الوقت نفسه ييسر سبيل فلسفة الحاضر أيضا . فالتاريخ علم يبحث فى ماضى الإنسان من أجل تحقيق معرفة الإنسان بذاته ، فهو يلهث وراء الإنسان من عصر إلى آخر باحثاً ومنقباً ومستفسراً ؛ محاولاً أن يفهم الإنسان وأن يُفْهِمهَ . «غاية التاريخ ، إذن ، وهدفه أن يشرح للإنسان ماهية الإنسان من جهة ، وأن ينور الإنسان ويفهمه حقيقة وجوده من جهة أخرى.

وإذا كان هذا الهدف لم يتحقق حتى الآن ؛ فإن هناك حقيقة تقول بأن البشر أصبحوا يعرفون الآن أموراً عن الماضى الإنسانى بنفس درجة التأكد التى يعرفون بها بعض الحقائق الموضوعية ، وأن الحقائق التاريخية الأكيدة عن هذا الماضى الإنسانى تتزايد يوماً بعد يوم بشكل يجعلنا نثق فى مستقبل علم التاريخ .

هناك ، إذن ، اتفاق على أن التاريخ علم يرتبط بالماضى الإنسانى أساسا . وهذه فكرة ليست جديدة أو مبتكرة ، فقد تضمنتها كل كتابات المؤرخين القدامى . ولكن علم التاريخ يرتبط بالماضى الإنسانى من حيث موضوعه فقط ؛ أما من حيث هدفه فإن التاريخ علم يرتبط بالحاضر والمستقبل وهنا ينبغى أن نشير مجدداً إلى ماسبق ذكره من أن التاريخ كدراسة ، ينحصر فى ماضى النشاط الحضارى للبشر ؛ من حيث دور الإنسان فى التفاعل مع بيئته فى إطار الزمان ، وهو ما يقودنا إلى الحديث عن أركانا الفعل التاريخى ، أو الأسس التى تقوم عليها الظاهرة التاريخية .

وهنا ينبغى أن يكون مفهوماً أن التاريخ استجابة لمحاولة الإنسان الأبدية لمعرفة نفسه ومعرفة الآخرين . ولهذا السبب فإن التاريخ دراسة

إنسانية تؤكد على أهمية الناس وعلى اختياراتهم الفردية وقيمهم ومثلهم العليا التى يتحلون بها ، والزوايا التى ينظرون منها إلى أنفسهم وإلى العالم . والتاريخ هو أكثر العلوم ارتباطاً بالإنسان لأنه يبحث فى أحوال البشر الماضية من أجل تحقيق معرفة الإنسان بذاته كوسيلة لمعرفة الإنسان بالكون فى الحاضر وفى المستقبل . بيد أن معرفة الإنسان بما هو خارج ذاته من الموجودات والكائنات والظواهر فى الكون لن تكون ذات جدوى إذا لم يكن الإنسان قد توصل إلى تحقيق معرفته بذاته . وإذا كانت هذه فائدة التاريخ - على أنها ليست الفائدة الوحيدة - فمن المنطقى أن نحاول معرفة أركان الظاهرة التاريخية .

تقوم الظاهرة التاريخية على ثلاث دعائم هى الزمان والإنسان والمكان . ولايمكن تصور فعل تاريخى ، أو ظاهرة تاريخية ، خارج حدود هذه الدعائم الثلاث .

فالزمن أو الزمان[1] هو قاعدة العملية التاريخية . فالزمن هو الذى يجعل للحادثة التاريخية صفتها التاريخية . ومن المستحيل تماما تصور أية حادثة تاريخية خارج نطاق الزمن . والزمن الذى نعنيه

---

(١) الزمن أو الزمان فى اللغة العربية يعنى «الوقت» قليله أو كثيره ، كما جاء فى «لسان العرب» لابن منظور و«كشاف مصطلحات الفنون» وقد عرض الدكتور حسام الألوسى فى كتابه : الزمان فى الفكر لدينى والفلسفى القديم (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٠م) ، ص١٢ -ص١٨ لكافة المعانى اللغوية والكلمات والمصطلحات الدالة على معنى الزمان .

هنا هو الزمن الإنسانى ؛ أى عمر الجنس البشرى فوق كوكب الأرض. وهذه الفترة التاريخية من عمر الأرض هى موضوع التاريخ كما أسلفنا القول . ذلك أن الفعل التاريخى فى حقيقته فعل إنسانى وقع داخل حدود الزمن الإنسانى . حقيقة أن اكتشاف القياس الزمنى وابتكار التقويم فى تاريخ البشرية ارتبط فى البداية بالرغبة فى تسجيل أفعال الآلهة ، وتحديد الأيام المقدسة ، فضلاً عن تسجيل الظواهر الطبيعية غير العادية التى كان العقل البشرى فى طفولته يعتقد بأن لها مغزى دينياً محدداً[١] . ومر زمن طويل حتى بدأ الإنسان يستخدم التقويم الذى ابتكره لتحقيق مصالح حياته المادية مثل الزراعة كما فعل قدماء المصريين . ثم بدأ الإنسان يستخدم هذا التقويم لتسجيل الحوادث التاريخية العادية .

والتاريخ علم متزمن ؛ أى أنه علم يتصل بالزمن أساسا . بل إن الزمن هو التاريخ فى أحد معانيه . ولكل حادثة تاريخية مكانها الزمانى بين الأزل والأبد ، وهو ثابتة فى موقعها الزمنى ، على حين يمضى الزمن فى صيرورته الدائمة بين الحاضر والماضى والمستقبل ؛ بحيث يصير الحاضر ماضيا ، والماضى القريب ماضيا بعيدا ، والمستقبل حاضراً.. وهكذا ولأن التاريخ يتعامل مع فيض من الأحداث التى وقعت فى رحاب الزمن ، فهو يكشف عن أن لا شئ يبقى ثابتا ويوضح أن التجربة الإنسانية التى تخضع لمتغيرات الزمن غنية بالحركة ومستمرة .

---

(٢٧) Barnes, A history of Historical Writing, pp. 12-16 .

ومن ناحية أخرى ، فإن ارتباط التاريخ بالزمن يتضح من خلال الحقيقة القائلة بأن الماضي الحضاري لبني الإنسان على سطح الأرض هو موضوع علم التاريخ . كذلك يتضح هذا الارتباط من خلال حقيقة أن الإنسان هو الوحيد بين الكائنات الذي يمكنه أن يميز بين آنات الزمن الثلاثة (الماضي والحاضر والمستقبل) ، كما أنه الذي يخضع لصيرورة الزمن ويفيد من التجارب التي ينقلها الزمن إليه . فكلما مضى زمن على الإنسان أضاف إليه مزيداً من المعرفة والخبرة وزاد في حجم التراث الحضاري للبشرية . والإنسان يكتسب بمرور الزمن مزيداً من الخبرات التي تجعله دائماً وأبداً كائناً متغيراً .

ومنذ بدأ الإنسان يسعى على سطح كوكب الأرض ارتبط مفهوم الزمن لديه بما يجري من تغيرات في هذا العالم الذي يعيش فيه . فزمن الإنسان هو وجوده التاريخي الذي هو حالة حاضرة بين ما كان وما سيكون في هذا العالم ؛ أي أنه بعبارة أخرى تاريخه الذي يحمل قصته في هذا العالم . وزمن الإنسان من ناحية أخرى هو معيار تقويم الأحداث في تتابعها . وإدراك الإنسان للزمن إنما يكون من خلال موروثاته الثقافية عبر الأجيال وهذا الوعي بالتغير الزمني هو الذي نسميه المعرفة التاريخية ؛ أي تحديد موقع الأحداث في مجرى الزمن .

وقد جاء الإرث الأسطوري ، الذي هو نتاج البشرية بأسرها دليلاً على محاولات الإنسان الباكرة لفهم التغير التاريخي في إطار الزمان . بيد أن الأساطير ، التي توصف عادة بأنها العلم البدائي ، لم تستطع أن تفسر للإنسان هذا التغير الآني . ولذا جاء الزمن في الأسطورة متداخلاً

بلا تحديد لأن الأسطورة ترى أن الزمن لم ينته بل مايزال مستمراً . ولذا فإن الفكرة الأسطورية عن الزمان كيفية ومجسمة ، لا كمية ومجردة . فالفكر الأسطورى لايعرف الزمان بوصفة تعاقباً للحظات زمنية متشابهة. كما أن الإنسان الأول لم يعرف فكرة الزمان التى تشكل لنا إطار التاريخ[١] .

وإذا انتقلنا إلى الفكر اليونانى القديم السابق على ظهور الفكر الفلسفي ، نجد اهتماما بالزمان كقوة طبيعية إلهية شاركت جزئيا ، أو كليا ، فى بعض الأحيان في ظهور الأشياء . وهذا التصور اليونانى القديم للزمان تشويه أوجه النقص التى شابت الفكر المصرى والبابلى القديم فى هذا الصدد[٢] وقد نظر اليونان القدماء والرومان إلى الزمان من خلال النظرية الدورية القائلة بأن الزمن يتجدد على دورات يحدث فى كل منها ما سبق حدوثه من قبل . وكانت تلك أول نظرية انتشرت فى الغرب لتفسير التاريخ[٣] . ووفقاً لوجهة النظر الدورية تحدث كل

---

(١) حسام الألوسى ، الزمان فى الفكر الدينى والفلسفى القديم ، ص٣٩- ص٤٠ .

(٢) نفسه ، ص٤٢ - ص٤٦ .

(٣) أفضل دراسة تتبعت هذه النظرية تاريخيا فى الشرق والغرب هى التى قام بها : Grace Cairns, Philosophy of History : Meeting of East and West in Cycle - Pattern Theories of History (N. Y. 1962) ; Norman F. Cantor, Medieval History, (2nd ed. 1969) , pp. 84- ff .

وكذلك : بيريل سمالى ، المؤرخون فى العصور الوسطى ، ص ٤١ .

الحوادث الإنسانية فى دورات . وقد تتغير الأسماء والتواريخ والأشخاص ، ولكن فى كل دورة يحدث ماسبق حدوثه فى الدورة السابقة ولنفس الغرض . ويصدق هذا على الأمم والدول والحقب التاريخية . وعلى أية حال ، فإن النظرية الدورية ليست فلسفة للتاريخ بالمعنى الحقيقى للكلمة . فأية فلسفة للتاريخ تفترض أن تكون هناك بداية ونهاية للتجربة الإنسانية ، وبينهما تجرى التجربة ، ولكن الدورة المتكررة لامعنى لها، كما أنها تنكر قدرة الإنسان على التطور والتحسن . وكانت النظرية الدورية سائدة فى العالم القديم حين كان الإنسان الغربى لايمتلك ناصية المعرفة الحقة عن الكون ، كما أن العقل الأوربى آنذاك لم يكن يتمتع بالفهم الكامل للمنظور الزمنى[١] . وإلى جانب هذه النظرية شاع فى العالم القديم رأى يقول بأن الزمن يمضى من الماضى إلى الحاضر صوب مستقبل غير محدود بنهاية معلومة[٢] .

وقد حدد الفكر العبرانى ، المتمثل فى العهد القديم الذى يمثل أقدم أنماط الكتابات التاريخية ، مفهوم الزمان وفقاً لمنظور دينى فى سفر التكوين الذى يعتبره البعض "أهم نص فى اليهودية والمسيحية يتعلق بمشكلة أصل العالم ومشكلة الزمن" [٣] ففى سفر التكوين نص

---

(١) Gawronski, History Meaning and Method, p. 20 .

(٢) Cantor, op. cit., 84 .

(٣) حسام الألوسى ، الزمان فى الفكر الدينى والفلسفى القديم ، ص٢٤ – ص٢٥ .

يوضح أن زمن الإنسان : أى عمره فى هذا العالم ، بدأ فى اليوم السادس بعد أن أتم الله خلق سائر مظاهر الكون ، ثم خلق الإنسان على صورته[1] . كما حدد الفكر العبرانى نهاية للزمان الإنسانى هى يوم الدينونة [2] .

وقد حاول الكتاب اليهود أن يبثوا الطمأنينة فى نفوس شعبهم وأن يلوحوا له بالأمل وسط دياجير اليأس . وكان طبيعياً أن يقدموا لشعبهم الوعد بالنجاح فى المستقبل حين يتدخل الرب لكى ينقذ شعبه المختار بزعمهم . ولما كان ماضى اليهود وحاضرهم ومستقبلهم جزءاً من قصتهم على سطح هذا الكوكب ، فقد حاول مفسرو سفر الرؤيا أن يضعوا تقسيماً زمانيا لتاريخ العالم يخدم هدفهم ، وهو ربط أنظار اليهود بما سوف يحدث فى المستقبل . وهكذا نظروا إلى الزمان من خلال فلسفة غائية . فجاء تفسيرهم لحلم نبوخذنصر ورؤيا دانيال تأكيداً لهذه الفلسفة.

---

(١) تكوين ١ : ٢٧ – ٣١ «.. فخلق الله الإنسان على صورته ، على صورة الله خلقه ، ذكراً أو أنثى خلقهم ، وباركهم وقال لهم أثمروا . وأكثروا وأملأوا الأرض . وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض .. ورأى الله كل ماعمله هو حسن جداً . وكان مساء وكان صباح يوماً سادساً ..» .

(٢) أشعياء ٣ : ١٣ «.. لقد انتصب الرب للمخاصمة ، وهو قائم لدينونة الشعوب» .

وتقول قصة حلم «نبوخذنصر» أن الملك رأى حلماً وطلب من العرافين أن يخبروه بحلمه وتفسيره وإلا كان مصيرهم الموت ، وتمكن دانيال من أن يروى على نبوخذ نصر مضمون الحلم وفسره له . فقد رأى الملك فى حلمه تمثالاً رأسه من ذهب ، وذراعاه من فضة ، وبطنه وساقاه من نحاس وقدماه خليط من الحديد والخزف . ثم يأتى حجر يحطم التمثال وتذروه الرياح ، ثم يكبر الحجر الذى حطم التمثال شيئاً فشيئاً بحيث يملأ الأرض كلها . وقد فسر دانيال هذا الحلم على أن العالم سوف تحكمه ممالك أربع متتالية تقضى عليها فى النهاية مملكة شعب الله المختار[١] .

وفى رؤيا دانيال تبرز من البحر وحوش أربعة .. والوحش الرابع هو أقواها وأكثرها إثارة للرعب ، فيمزق الوحش الوحوش الثلاثة الأخرى . وفى رأس هذا الوحش الرهيب تنمو عشرة قرون ثم ينمو قرن حادى عشر أصغر منها جميعاً ، ولكنه يسيطر عليها . وأخيراً يأمر القديم الأيام ، أى الله ، الجالس على عرشه بتدمير الوحش بالنيران [٢] وقد حاول المفسرون أن يفسروا عمر العالم ، أى تاريخ الإنسان أو زمنه على الأرض، على وحوش دانيال الأربعة وتمثال نبوخذنصر . فجعلوا الممالك الأربع هى ممالك : بابل والميدين ، والفرس ، والمقدونيين . وهى المالك التى عاصرها اليهود واحتكوا بها ، وقالوا إن الرب سوف يدمر

---

(١) دانيال ٢ : ٣١ – ٤٥ «.. وفى أيام هؤلاء الملوك يقيم إله السموات مملكة لن تنقرض أبداً ، وملكها لايترك لشعب آخر ، وتسحق وتفنى كل هذه الممالك، وهى تثبت إلى الأبد ..»

(٢) دانيال ، الأصحاح السابع .

المملكة الأخيرة (أى الوحش الرابع) التى هى مملكة المقدونيين لكى ينقذ شعبه المختار . ولكن انتصار الرومان على الممالك الهللينستية التى ورثت الأسكندر الأكبر جعل المفسرين يعدلون عن تقسيمهم هذا مع مراعاة الحفاظ على التقسيم الرباعى للزمن فعمدوا إلى دمج الميديين والفرس فى مملكة واحدة وجعلوا الوحش الرابع رمزاً على الأمبراطورية الرومانية . بيد أن التغيرات التاريخية اللاحقة ما لبثت أن أثبتت فشل هذا التقسيم الرباعى وعدم جدواه . .

ومن المعلوم أن المسيحية قد ورثت العهد القديم عن اليهودية ، وهو ما يعنى أنها ورثت أيضاً مفهوم الزمن الإنسانى الذى يمتد بين بداية هى يوم الخليقة ، ونهاية هى يوم الحساب . وبين البداية والنهاية يمضى الزمن خلال العهد القديم والعهد الجديد . وعلامة النهاية هى المجئ الثانى للمسيح ويوم الحساب ، وعندها سوف يحل الخلود محل الزمن والتاريخ. فزمان الإنسان ؛ أى تاريخه فى الدنيا – كما تراه المسيحية – هو تاريخ خلاص الإنسان عبر الزمان ، إلا أن فهم تاريخ خلاص الإنسان عبر الزمان كان يقتضى تقسيم هذا الزمان إلى عصور أو فترات . ولذا ابتكر آباء الكنيسة تقسيماً للزمن الإنسانى إلى مراحل تحدد كل منها مرحلة من مراحل تنفيذ الخطة الألهية لحياة الإنسان فى الكون . وهكذا يتدخل تاريخ الكتاب المقدس فى التاريخ الدنيوى على اعتبار أن الأحداث كلها من تدبير العناية الإلهية [1] .

---

(١) عن هذا الموضوع انظر : بيريل سمالى ، المؤرخون ، ص ٤١ ومابعدها ، نورمان كانتور ، تاريخ العصور الوسطى (ترجمة د. قاسم عبده قاسم ومراجعة د. على الغمرواى – القاهرة ١٩٧٧م) ص١٥٦ – ص ١٧٠ ، أنظر أيضا . =

والجدير بالذكر أن علماء اللاهوت المسيحيين قبل أوغسطين لم يستطيعوا التحرر من ربقة النظرية الدورية اليونانية . بل أن أوريجين السكندرى ، أكبر علماء اللاهوت بين آباء الكنيسة الشرقية ، قد أحرز مكانته هذه بفضل صياغته لهذه النظرية فى ثوب مسيحى اعتماداً على العبارة القائلة «فليس تحت الشمس بجديد»[١] وكان أوغسطين هو أول من أدرك خطورة النظرية الدورية فى التاريخ على الإيمان المسيحى بتجسد المسيح ، أى حياته على الأرض ، لأنها تعنى إمكانية أن يتكرر تجسد المسيح مرات ومرات . وكان أن نادى أوغسطين بأن تجسد المسيح أمر لايمكن أن يتكرر فى التاريخ أبداً . كما قال بأن المسيح مات مرة واحدة وإلى الأبد فداء الخطايا البشر وآثامهم . والزمن يمتد فى خط طولى بين بداية ونهاية ، وفيما بينهما وقع أعظم حادث فردى ، هو تجسد المسيح ، والذى يجب أن ينسب إليه التاريخ الإنسانى بأسره .

وقسم أوغسطين تاريخ العالم إلى عصور ستة تماثل الأيام الستة التى خلق الله العالم فيها ، ولكنه لم يأخذ برأى الألفيين الذين قدروا كلا من هذه العصور بألف سنة ، بل جعل مجري العصور الستة مماثلة لمراحل عمر الإنسان الفرد من الطفولة إلى الشيخوخة . وكانت غايته أن يوضح أن الوجود الإنسانى سوف ينتهى بعودة المسيح وقيام القيامة في اليوم

=Barnes, A hist. of historical writing. pp. 41- ff' The Essential Augustine (edited by Vernon J. Bourke), The New American library 1964, pp. 220 - 242 .

(١) الجامعة ١ : ٩ .

السابع وبعدها ينتقل الإنسان من الزمن والتاريخ إلى الخلود . والملاحظ أن هذا التقسيم السداسى للزمن إنما يحاول أيضاً صياغة الفكر التاريخى فى إطار يخدم الفكرة المسيحية القائلة بعودة المسيح لخلاص البشرية . وفى هذا القالب حاول مؤرخو العصور التالية أن يصبوا أحداث ووقائع التاريخ ومن المهم أن نلاحظ أن هذا التقسيم ظل يحكم الفكر التاريخى فى الغرب الأوربى حتى القرن السادس عشر على الأقل. ومنذ القرن السابع عشر فرض التقسيم الثلاثى للزمن (الذى يقسم تاريخ العالم إلى عصور قديمة ووسطى وحديثة)[١] نفسه على الرؤية التاريخية على الرغم من عدم جدواه وفعاليته .

أما مفهوم الزمن عند المؤرخين المسلمين فيتركز على الأفكار القرآنية التى حددت رؤية المؤرخين المسلمين لقصة الوجود الإنسانى فى الكون . وقد أشار السخاوى[٢] إلى أن البداية الحقيقية لعلم التاريخ عند المسلمين ذات أصل دينى بتأثير ماورد فى القرآن الكريم من مادة تاريخية تتناول قصص الأمم الماضية ، وأخبار الأنبياء السالفين وغير ذلك .

---

(١) Norman F. Cantor, The Med Hist., pp. 2-3 .

انظر كذلك ، على الغمراوى ، مدخل إلى دراسة التاريخ الأوربى الوسيط (الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٧م) ، ص ٢٨١ . والجدير بالذكر أن الدكتور الغمرواى قد عالج قضية بداية العصور الوسطى بشكل وافى فى الصفحات من ٢٧٥ إلى ٣٤١ .

(٢) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، ص٩١ - ص١١٣ .

وينبغى أن نضع فى اعتبارنا أن الأسس الثقافية للمؤرخين المسلمين (شأنهم شأن غيرهم من قادة الفكر الإسلامى فى سائر مناحيه) كانت دينية بالضرورة ، فعلوم القرآن والحديث والفقه والأصول كانت تمثل الركيزة الأساسية فى ثقافة المسلمين إلى جانب العلوم الأخرى التى كانوا يدرسونها مثل علوم اللغة وتقويم البلدان والحساب والموسيقى والفلك والطب .. وغيرها . ولما كانت الخلفية الثقافية للمؤرخين المسلمين قائمة بالضرورة على أساس من المفهوم القرآنى ، فقد كان من الطبيعى أن تكون أبعاد فكرة التاريخ لديهم نابعة من هذه الخلفية .

وبغض النظر عن الخلاف الذى ثار بين الفلاسفة والمتكلمين حول أزلية الزمن أو حدوثه وعدمه أو وجوده ، فإن المؤرخين المسلمين قصروا اهتمامهم على الزمن التاريخى ، أى عمر الإنسان فى هذا العالم . وعندهم أن الزمن بهذا المفهوم يبدأ من نقطة بداية معلومة هى يوم الخلق الذى يحدده القرآن الكريم فى قوله تعالى :﴿وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً، ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾[1] وفى القرآن الكريم أيضاً : ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾[2] .

هذه إذن بداية الوجود الإنسانى ، أو الزمن التاريخى ، كما حددها القرآن . وهى بداية آمن بها ، بطبيعة الحال ، كل المؤرخين المسلمين ،

---

(١) سورة هود : آية ٧ .

(٢) سورة ق : آية ٣٨ .

وانعكس هذا الإيمان على محاولاتهم لرسم صورة لقصة الإنسان فى الكون عبر الزمن بحيث تكون قصة الخليفة وآدم وحواء والأنبياء هى البداية التى ينطلق منها المؤرخون المسلمون صوب عصرهم الذى يعيشون فيه .

وكان المؤرخون المسلمون ، من جهة ثانية ، يؤمنون بأن زمان الإنسان سوف ينتهى يوم القيامة حيث تحاسب كل نفس بما كسبت ، وينتقل الإنسان إلى الحياة الآخرة . ومن المعلوم أن الإيمان باليوم الآخر يمثل ركنا من أركان الإيمان الإسلامى ، ففى القرآن الكريم : ﴿الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثا﴾(١) وفيه أيضاً :﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون﴾ (٢) .

وهكذا يمتد الزمن فى خط طولى ما بين يوم الخليفة ويوم الحساب . بيد أن المؤرخين المسلمين لم يحاولوا تقسيم هذا الزمن وفقا لرؤية فلسفية غائيّة تحاول أن تتخطى حدود الحاضر لتستشرف آفاق المستقبل ، بل قصروا دراستهم على الماضى والحاضر ، ولم يحاولوا تقدير عمر الزمان استناداً إلى أن ذلك يدخل فى نطاق الغيب الذى هو من علم الله ، كما أنهم لم يحاولوا قولبة المستقبل في نظرية فلسفية . وإذا كان بعض

---

(١) سورة النساء : آية ٨٧ .

(٢) سورة البقرة ، آية ٤ .

المؤرخين المسلمين مثل «ابن جرير الطبرى» قد حاول تقدير عمر الزمان استناداً إلى مصادر قديمة مثل «وهب بن منبه» و «كعب الأحبار» [١] مما يكشف عن التأثير العبرانى على هذه المحاولة - فإن اشتغال الطبرى بالتفسير من ناحية ، وتأثره بالإسرائيليات من ناحية أخرى ، يجعل من هذه المحاولة مجرد استثناء لايمثل القاعدة فى ميدان التدوين التاريخى عند المسلمين . فابن الأثير يقول تعليقا على محاولة الطبرى هذه [٢] «.. ولا يليق ذلك بالتواريخ ، ولا سيما المختصرات منه فإنه بعلم الأصول أولى ، وقد فرغ المتكلمون منه فى كتبهم ، فرأينا تركه أولى.." .

ولكن المؤرخين المسلمين لم يتخلوا تماما عن فكرة تقسيم الزمن التاريخى إلى فترات أو عصور بغية الوصول إلى فهم التغير التاريخى من خلال هذا التقسيم . وبينما كانت الرؤية العبرانية والرؤية المسيحية- كما جسدها أوغسطين - تحاول أن تستشرف آفاق المستقبل ، اكتفت الرؤية الإسلامية بتقسيم الماضى وتدوين الحاضر فى إطار من التتابع الزمنى على مر الأيام والشهور والسنين ، تاركة المستقبل لأنه يدخل فى نطاق علم الله الذى لايعلمه سواه .

ومن ناحية أخرى أدرك المؤرخون المسلمون ، بحكم ثقافتهم القرآنية ، أن الزمن الإنسانى يتسم باستمرارية متصلة على الرغم من التغيرات التى تتعرض لها شئون البشر داخل إطار هذا الزمن . وفى تصورنا أن

---

(١) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك (طبعة دار المعارف) جـ١ ، ص٩ - ص١٩.

(٢) ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ (طبعة دار صادر، بيروت) جـ١ ، ص١٢ .

هذا هو ما يمكن أن يفسر لنا حرص الكثيرين من المؤرخين المسلمين على تتبع جذور القصة التاريخية التى يعرضونها فى الماضى القريب وفى الماضى السحيق على حد سواء . والواقع أن كثيراً من الحوليات والتواريخ الإسلامية تبدأ بقصة الإنسانية منذ آدم ، وتمضى عبر الزمان حتى تصل إلى عصر المؤرخ . بل إن المؤلفات التاريخية التى تناولت تاريخ بلد واحد من بلدان العالم الإسلامى . أو غيره ، تحاول أن تتبع بداية تاريخ هذا البلد منذ بداية العالم ، أى منذ بداية الزمان .

إلا أن رؤية المؤرخين المسلمين للزمن ، باعتباره خطا طوليا مستمرا فى صيرورة دائمة ، قد فرضت نفسها على منهجهم فى تتبع الحوادث التاريخية فى مجرى الزمان ، وهو الأمر الذى تجسد بوضوح فى النظام الحولى الذى اتبعه المسلمون ، غالبا ، فى تدوين الحادثة التاريخية من جهة ، وفى تقسيمهم للزمن التاريخى على أساس الدول من جهة أخرى. ويغلب على الظن أن تقسيم المؤرخين المسلمين للزمن على هذا النحو إنما يأتى انعكاسا للرؤية القرآنية القائلة بأن : ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ [1] وقوله تعالى : ﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لايعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به ، وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب﴾ [2] وهو ماجعل المؤرخين المسلمين لايحاولون تقسيم الزمن على نحو تنبئوى كما فعل العبرانيون والمسيحيون .

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٤٠ .

(٢) سورة إبراهيم : آية ٩ .

وقد انعكس هذا الموقف ، بوضوح ، فى العناوين التى اختارها المؤرخون المسلمون لمؤلفاتهم ، وهى مؤلفات تحمل فى أغلبها أسماء الدول والملوك . بل إن هناك طائفة من المؤلفات التاريخية الإسلامية تكشف عن فهم المؤرخين المسلمين لحقيقة أن الزمن مستمر وغير قابل للتقسيم التعسفى على الرغم مما يقع فيه من تغيرات . ومن ثم فإن عناوينها تكشف عن أن الحوادث التاريخية هى مجرد تغيرات فى مجرى الزمان . فابن تغرى بردى ، مثلا ، يكتب «حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور» ويضع ابن اياس لحوليته عنوانا معبرا هو «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» على حين يختار العينى لحوليته عنوانا «عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان» ، ويكتب ابن حجر تحت عنوان «إنباء الغمر بأنباء العمر»[1] .

ويضيق بنا المقام عن محاولة تتبع أسماء المؤلفات التاريخية العربية الإسلامية ، إلا أننا نستطيع القول بأن غالبية هذه المؤلفات تعكس فى وضوح إدراك المؤرخين المسلمين لحقيقة التغير التاريخى من خلال إدراكهم لصيرورة الزمن واستمراريته فى خط طولى بين البداية والنهاية اللتين حددهما القرآن الكريم لوجود الإنسان فى الحياة الدنيا . بل إننا نستطيع القول بأن المؤلفات التاريخية التى لاتحمل مثل هذه العناوين الواضحة الدالة لا تقلل من قيمة الاستنتاج الذى ذهبنا إليه ،

---

(١) انظر القسم الثانى من هذا الكتاب .

وإنما تؤكده على نحو ما . فالمسعودى مثلا : «قد استوعب ما قبل الملة من الأمم والدول ..» على حد تعبير عبد الرحمن بن خلدون[١] .

وقد جسد ابن خلدون - الذى يمثل اتجاه فلسفة التاريخ عند العرب المسلمين - أهمية إدراك التغير التاريخى فى مجرى الزمان بقوله : «.. ومن الغلط الخفى الذهول عن تبدل الأحوال والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام . وذلك أن أحوال العالم وعوائدهم ونحلهم لاتدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر . إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة ، وانتقال من حال إلى حال ، كما يكون ذلك فى الأشخاص والأوقات والأمصار ، فكذلك يقع فى الآفاق والأقطار والأزمنة والدول .. سنة الله التى خلت فى عباده ..»[٢]

هذه ، بشكل عام ، الخطوط العريضة لمفهوم المؤرخين المسلمين للزمن، وهو مفهوم يكشف عن إدراك حقيقى للتغير التاريخى . لقد كان خطأ التقسيمات التى وضعها العبرانيون والمسيحيون ، والتقسيمات الحديثة للزمن ، أنها تحاول قولبة التاريخ الانسانى فى قوالب ثابتة مسبقة دون إدراك لحقيقة التغير التاريخى الدائم الذى تعبر عنه الحوادث الواقعة فى مجرى الزمان . ولما كان الزمن الانسانى ، أى وجود الإنسانى فى الكون، هو محور اهتمام المؤرخين وفلاسفة التاريخ ، فقد تعين عليهم أن يسعوا دائما إلى تقسيم التاريخ (أى الزمن الإنسانى) إلى عصور

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ١٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٠ .

أو فترات بقصد الوصول إلى فهم أوسع للتطور التاريخى ، أى رغبة منهم فى تسخير هذا التقسيم لخدمة فروضهم الفلسفية ، ومن ثم فإنهم أدخلوا المستقبل فى نطاق هذه التقسيمات . ولكن المؤرخين المسلمين استبعدوا المستقبل من هذه التقسيمات من جهة ، كما بنوا تقسيماتهم على أساس واقعى ملموس من جهة أخرى . وأدى هذا إلى أنهم قسموا التاريخ إلى فترات موافقة للدول حتى تسهل الدراسة عليهم ؛ فكل فترة تتناول تاريخ دولة من الدول ، ثم يقسم تاريخها إلى فترات فرعية حسب عهود الحكام، خلفاء أوسلاطين ، ثم يأتى تقسيم فرعى آخر إلى سنوات يتابع المؤرخ حوادث كل منهما على مر الشهور والأيام فيما يشبه اليوميات أحيانا .

لقد فهم المؤرخون المسلمون الزمن التاريخى انطلاقا من خلفيتهم الثقافية التى تمثل علوم القرآن والحديث ركيزتها الأساسية . ومن ثم اقتصرت دراستهم على الماضى والحاضر فحسب . وكان التقسيم الوحيد الذى طرحوه قائما على أساسا الدول ، وهو فى رأينا تقسيم موضوعى يصلح لكل زمان . ذلك أنه من السهل تماما تحديد نقطة البداية والنهاية لأية دولة ، ولكن من المستحيل أن تحدد البداية والنهاية لأى عصور من العصور التاريخية التى تقترحها التقسيمات التعسفية للزمن . ولعل الخلافات والمجادلات الناشبة الآن بين المؤرخين حول بدايات العصور التاريخية ونهاياتها يمكن أن تؤكد ماذهبنا إليه .

فبسبب طبيعة الزمن لايمكن أن تحدد سنة بعينها ، بداية أو نهاية ، لعصر من العصور التاريخية . كما أن حقيقة كون الزمن فى صيرورة دائمة يجعل من التقسيمات الحالية أمرا غير ذى موضوع . وقد حدث منذ القرن السابع عشر أن ساد الفكر التاريخى فى الغرب تقسيم ثلاثى

يقسم الزمن إلى عصور قديمة ووسطى وحديثة . وبمرور الأيام بدا للباحثين أن هذا التقسيم قد فقد جدواه ، وبدأ البعض يبحثون عن تقسيم آخر يحل مشكلات الدراسة التاريخية . فأضافوا قسما رابعا اصطلحوا على تسميته «التاريخ المعاصر» وجعل البعض بدايته سنة ١٩١٤م (اندلاع الحرب العظمى الأولى) ، على حين جعلها البعض الآخر سنة ١٩١٧ (وهى سنة قيام الثورة البلشفية فى روسيا)[١] . ولكن هذا التقسيم أيضا لايمكن أن يصلح لكل زمان لسببين : أولهما أنه لايمكن تحديد بداية أو نهاية أى من هذه العصور التاريخية بشكل حاسم، لأن الماضى يظل أبدا موجودا فى الحاضر " بمعنى أن مانعيشه فى حاضرنا ليس كله من نتاج هذا الحاضر وإنما نقل الزمن إلينا كثيرا منه من الماضى القريب أو الماضى البعيد . وكما يستحيل أن نحدد لشخص ما السنة ، أو الشهر ، أو اليوم الذى بدأ فيه مرحلة الشباب أو الشيخوخة فى حياته ، مثلا ، فإننا لايمكن أن نحدد بداية عصر أو نهايته بسنة بعينها أو بحادثة مشهورة . والسبب الثانى هو أن الزمن يمضى تاركا الأحداث فى موقعها الزمانى بحيث يصير الحاضر ماضياً والماضى القريب ماضياً بعيدا ، وهو مايعنى استحالة أن يظل التاريخ «المعاصر» معاصرا .

لقد كان الناس فى العصور الوسطى يعتقدون - بحق - أنهم على قمة الزمن وأنهم أبناء عصرهم "الحديث" . ولكن الزمن فى مسيرته الدائمة مضى تاركا أياهم فى موقعهم الزمانى بحيث أصبح عصرهم

---

(١) على الغمراوى ، المدخل ، ص ٢٨١ ومابعدها .

هو العصر الوسيط وصار عصرنا هو العصر الحديث . وكثيرا ما يحار المرء من جراء التفكير فى ماهية الاسم الذى سوف يطلقه من يجيئون بعدنا على عصورنا «الحديثة» .

ومن المهم أن نتذكر أن لكل تقسيم من التقسيمات التاريخية عيوبها وشوائبها لأنها تتسم بالاصطناع ، ولأنها تشوه الرؤية التاريخية إلى حد ما . بيد أننا مدفوعون إلى استخدام هذه التقسيمات لسبب هو أن أحدا حتى الآن لم يكتشف الوسيلة التى يمكن أن نتناول بها الدراسة التاريخية بعيدا عن هذه التقسيمات . ومن المهم أيضا أن نتذكر أن التقسيمات السائدة فى مجال الدراسات التاريخية كانت تعبر عن آراء ومفاهيم واتجاهات عصور أخرى غير عصرنا . وعلى الرغم من أنها فقدت جداوها وفعاليتها منذ زمن طويل فإنها تظل تفرض نفسها علينا حتى الآن .

وفيما يتعلق بالدراسات التاريخية فى عالمنا العربى الإسلامى فإنه ينبغى علينا أن نطرح التقسيم الثلاثى (أو الرباعى) الحالى جانبا ونبحث عن صيغة توافق تراثنا وشخصيتنا الحضارية لأن التقسيم السائد الآن نابع من ظروف أوربا والغرب ، ولأنه يتخذ من الحضارة الغربية حضارة مرجعية ويجعل من أوربا مركز العالم . وليست هذه دعوة قائمة على أساس من التعصب الأعمى ، ولكنها دعوة تستند إلى أن العالم العربى الإسلامى كان مهد حضارات قديمة قبل أن تكون أوربا أكثر من مجرد تعبير جغرافى . فضلا عن أن الحضارة العربية الإسلامية ، التى كانت نتاج التفاعل بين المفاهيم التى جاء بها الاسلام والموروثات الحضارية عند الشعوب التى اعتنقته ، أظلت العالم بظلها الظليل حين كان الغرب يتخبط فى محاولة إيجاد طريق التقدم والتطور . والأهم من

هذا كله أن التقسيم الحالى تقسيم أوربى الروح والنشأة والهدف ، فهو يعبر عن واقع أوربا التاريخى ، ومن ثم فهو لايمكن أن يصلح للتعبير عن واقع شعوب أخرى أو حضارات أخرى . وتقوم فكرتنا على أساس أن التراث العربى التاريخى ربما يصلح أساساً لفكرة تاريخ تعبر عن رؤية العرب لذاتهم وللآخر ، وربما تصلح أساساً لتقسيم جديد للعصور التاريخية .

أما المكان أو البيئة فهو الركن الثانى من أركان الظاهرة التاريخية . فالبيئة هى مسرح العملية التاريخية الذى يهمنا التعرف على قسمات تضاريسه ومميزاته المناخية . وإذا كنا نقول إن التاريخ علم متزمن ، بمعنى أن الزمن يمثل القاعدة الأساسية فى الظاهرة التاريخية ، فإننا يمكن أن نقول أيضا أن التاريخ علم متمكن لأن الجغرافيا تعتبر من الحقائق الأولية فى التاريخ . وبقدر ما تقدمه البيئة من معطيات وماتطرحه من تحديات أمام الانسان يتحدد شكل الظاهرة التاريخية . والجغرافيا ، كما يقول أحد الباحثين ، هى إحدى حقائق التاريخ وإحدى مقولاته وإحدى العوامل الكبرى المؤثرة فيه ، تحكمت فى ظهور المدنيات فى مواقع محددة كما منعتها الظهور فى مواقع أخرى(١) .

ومن ناحية أخرى فإننا لانستطيع أن نتصور وجود الفعل التاريخى فى فراغ بعيدا عن المكان أو البيئة ، فالتفاعل بين الناس والبيئة فى إطار الظرف الزمانى هو الذى ينتج لنا الظاهرة التاريخية فى أى عصر من العصور . وعلى هذا الأساس فإن البيئة بما تقدمه من معطيات

---

(١) شاكر مصطفى ، «التاريخ : هل هو علم ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس ، العدد الأول ابريل – مايو ، يونيو ١٩٧٤» ، ص١٨٣ .

تتمثل فى الأرض وشكلها وطبيعتها ودرجة خصوبتها أو جدبها ، ومن حيث توفر مصادر المياه أو قلتها ، وموارد الثروة المعدنية أو النباتية ، والبحار والبحيرات والأنهار ، والجبال والتلال والسهول والوديان فضلا عن الظروف المناخية السائدة . وما إلى ذلك - هذه البيئة تترك أثرها الواضح على شكل الظاهرة التاريخية ومدى أهميتها فى المجرى العام لتاريخ الإنسانية . وهو الأمر الذى يفسر لنا حقيقة أن الخط الحضارى فى بيئة نهرية فيضية لابد وأن يختلف بالضرورة عن الخط الحضارى فى بيئة صحراوية أو جبلية أو بحرية .

ومنذ البدايات الأولى أدرك الإنسان أن للبيئة دورا هاما فى تشكيل الحدث التاريخى ، بل إن الأساطير التى تعتبر الأب الشرعى للتاريخ أدخلت المظاهر البيئية الطبيعية فى نسيج القصة التى ترويها فى محاولة لتفسير لغز وجود الإنسان فى الكون . ويرى بعض العلماء بأن أساطير العالم القديم ، التى تمثل واحدة من أعمق منجزات الروح الانسانية ، كانت نتاجا لتأملات كونية عميقة . فهناك كثير من الأساطير القديمة تتعلق بالحق ونظام الكون وشكل الانسان وإقامة الحضارة[1] . فقد ربطت الأساطير الكنعانية مثلا بين الظروف البيئية من خصوبة وجدب وبين الآلهة ، إذ اهتمت هذه الأساطير بتصوير بعل (رب الخصوبة والحياة) وموت (رب العقم والموت) حين يقتتلان . والفعل نا - أى القتال - غير هام فى ذاته ولكن قيمته تتمثل فى نتائج القتال بين

---

(١) صمويل نوح كريمر ، أساطير العالم القديم (ترجمة د. أحمد عبد الحميد يوسف ومراجعة د. عبد المنعم أبو بكر) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤ ، ص ٧ .

الإلهين ، والتى تحدد ماسوف تكون عليه الأرض خصيبة أو مجدبة لفترة تطول [١] كما أن الأساطير الهندية قد كشفت عن رغبة الإنسان الطبيعية فى الوصول إلى تفسير لبيئته - كيف وجد الكون وكيف يعمل، ومن أين أتى الانسان ؟ وما وظائف مختلف أجزاء الطبيعة وعلاقتها بعضها ببعض من الشمس والقمر والرياح والعواصف والفيضان والجفاف والفيضانات[٢] .

ومنذ البدايات الأولى لعلم التاريخ أدرك المشتغلون به أهمية البيئة كعامل أساسى فى تشكيل الفعل التاريخى . فهيرودوت ، مثلا حين يتحدث عن مصر يبدأ بوصف البيئة الطبيعية من حيث شكل الأرض ، وتربتها ، ومساحتها ، ثم يتطرق إلى الحديث عن شكل الحضارة المصرية فيتحدث عن الزراعة والنيل الذى أدرك أنه العامل الأول فى تشكيل البيئة المصرية[٣] .

كذلك فإن يوليوس قيصر حين ألف كتابه عن «الحرب الغالية» لم ينس أن الجغرافيا عامل مهم فى تشكيل الفعل التاريخى . وتعليقات يوليوس قيصر عن الحرب الغالية والحرب الأهلية من أهم الكتب فى تاريخ الكتب التاريخية عند الرومان . وكتاب الحرب الغالية (سنة ٥١ ق.م) يعتبر أول مؤلف لاتينى يعتد به ، فهو يعطينا فكرة دقيقة واضحة

---

(١) نفسه ، ص١٥٩ وما بعدها .

(٢) المرجع نفسه ص٢٨٤ - ٢٨٥ .

(٣) انظر : هردوت يتحدث عن مصر (ترجم الأحاديث د. مصر صقر خفاجة وقدم لها وشرحها د. أحمد بدوى) . دار القلم ١٩٦٦م .

عن المعارك التى خاضتها الفيالق الرومانية بقيادة يوليوس قيصر فى سبيل الاستيلاء على بلاد الغال (فرنسا الحالية تقريبا) كما يقدم لنا معلومات جغرافية ضافية عن الميادين التى دارت فيها رحى هذه المعارك[١] .

وفى العصور التالية للعصر الكلاسيكى ، والتى اصطلح على تسميتها بالعصور الوسطى ، انحصر التاريخ بشكل عام فى نطاق الحوليات الرهبانية التى تفتقر سجلاتها السنوية إلى عناصر التحليل والاسترجاع التى يكسبها صفة التاريخ . وعلى الرغم من أن مؤرخى العصور الوسطى قد أظهروا فى بعض الأحيان وعيا تاريخياً أعمق مما هو مشهور عنهم ، فإنهم غالباً ماعجزوا عن التمييز بين الأمور الإلهية والأمور البشرية ؛ فكل الحوادث كانت من أحكام الرب بالنسبة لهم . وقد أدى هذا الموقف ، بطبيعة الحال ، إلى إغفالهم لدور البيئة فى العملية التاريخية . ذلك أن تفاعل الإنسان مع بيئته فى إطار الزمان هو الذى يخلق الظاهرة التاريخية . ولكن نسبة الأحداث إلى القدرة الإلهية والمشيئة الربانية يلغى أى دور للإنسان سوى دور الأداة أو قطعة الشطرنج ، كما ينهى تماماً أى دور البيئة مثلما حدث فى كتابات معظم مؤرخى العصور الوسطى ، ولاسيما الكنسيين منهم . ومن ناحية أخرى، كان ولع مؤرخى العصور الوسطى الأوربيين بتقليد النماذج والأنماط والأطر الرومانية فى التدوين التاريخى من أسباب غياب وعيهم بدور

---

(١) Barnes, Ahist, of historical writing, pp. 36-7 .

البيئة فى العملية التاريخية . فقد كان للمؤرخ الرومانى سالست[١] تأثير شديد على مؤرخى العصور الوسطى الأوربيين . وقد أعادت رسالتاه عن مؤامرة كاتيلينا والحرب اليوجورتية تأكير تعاليم شيشرون عن أهمية الجغرافيا من خلال وصف سالست للبيئة التى دارت فى إطارها الحرب اليوجورتية فى شمال إفريقيا ، كما أوضح مدى تأثير هذه البيئة على عادات وتقاليد وتفكير القبائل المراكشية التى حاربها الرومان ، وبين كيف كان لهذه العوامل أثرها فى الانتصارات الأولية التى أحرزها المراكشيون ، ثم الهزيمة التى منى بها هؤلاء فى نهاية الحرب التى خاضوها ضد روما . وكان ولع المؤرخين الأوربيين فى العصور الوسطى بهاتين الرسالتين شديدا ، بسبب سهولة اللغة وصغر الحجم . وأدى هذا إلى أن الاقتباس منهما صار جزءاً هاماً فى بنية المؤلفات التاريخية التى كتبت آنذاك .بل إن من مؤرخى العصور الوسطى من نقل وصف سالست لمشاهد المعارك والمظاهر البيئية فى شمال أفريقيا أثناء حديثه عن معارك دارت فى أوربا ، وفى ظروف بيئية وجغرافية ومناخية مغايرة ، دون أن يهتم بإبراز الدور الذى تلعبه البيئة[٢] .

---

(١) جايوس ساليستوس كريسبوس Gaius Sallustius Crispus يعتبره البعض بمثابة التلميذ الرومانى للمؤرخ اليونانى ثوكيديديس . وأهم مؤلفاته كتاب عن تاريخ روما فى الفترة من ٧٨ - ٦٧ ق.م . ويمكن الكشف عن خصائصه كمؤرخ من خلال رسالتيه عن مؤامرة كاتلينا والحرب اليوجورتيه اللتين شغف المؤرخون الأوربيون فى العصور الوسطى بتقليدهما - لمزيد من المعلومات انظر :

Barnes, A Hist. of historicaol writing, p. 37 .

(٢) بيريل سمالى ، المؤرخون فى العصور الوسطى ،ص٢٥- ص٢٧ .

وعلى الرغم من أن عدداً كبيرا من مؤرخى العصور الوسطى العالمية (مابين القرن الحادى عشر والقرن الثالث عشر تقريبا) ، قد أظهروا قدراً من الفهم المتزايد للحركة التاريخية[١] ومن هؤلاء أوتو الفريزى Otto of Freising (١١١٠-١١٥٨) ومتى الباريسى (ت١٢٥٩٠م تقريبا) وجوانفيل (١٢٢٤ - ١٣١٩ تقريبا) وفروسارت Froissart (١٣٣٧-١٤١٠ تقريبا) . وقد أمدنا هؤلاء وأمثالهم بروايات تاريخية يعتد بها ، ولكنهم لم يتخلصوا تماماً من تأثير أوغسطين وكتابه «مدينة الله» الذى يصور فيه العالم وتاريخه فى صور التجلى والإظهار لإرادة الرب . ويعنى هذا أنهم ظلوا يكتبون التاريخ كما ينبغى أن يكون وليس كما حدث بالفعل .

وعلى الرغم من أن هذا الموقف أدى إهمال البيئة والجغرافيا فى غالب مؤلفاتهم ، فإن بعض من كتبوا عن الحروب الصليبية منهم وصفوا البيئة، أو المسرح الذى جرت عليه قصة الحروب الصليبية ، لقد جاءت الحروب الصليبية لتحرر المؤرخين الأوربيين من ربقة الأطر القديمة ، فقد كانت تلك الحروب تجديداً تاريخياً كبيراً فى الحضارة الأوربية ، وبسبب ماتتسم به قصة الحروب الصليبية من جدة وطرافة ، وما حفلت به من إثارة ، تحرر المؤرخون الأوربيون من الاعتماد على تقليد النماذج القديمة[٢]. وأدى هذا بالتدريج إلى بداية ظهور الكتابات التاريخية

(١) Marwick, The Nature of history, pp. 27-28 .

(٢) قاسم عبده قاسم ، الحروب الصليبية – نصوص ووثائق (العربية للدراسات والنشر ، القاهرة ١٩٨٥م) ، ص٢٥ – ص٢٧ .

التى تهتم بالظاهرة التاريخية الحقيقية وأركانها الأساسية ومنها البيئة بطبيعة الحال . ومضى وقت طويل قبل أن يعرف الأوربيون التاريخ بمفهومه العلمى الحالى[١] وقد قامت أهم نظريتين فى الفكر الأوربى المعاصر لتفسير التاريخ على أساس ما للبيئة من أهمية ؛ فالنظرية الماركسية تهتم تماماً بالبيئة . وكذلك النظرية التى طرحها آرنولد توينبى.[٢]

أما فى التراث العربى قبل الإسلام ، والذى يتمثل فى الأنساب وأيام العرب وقصص عرب اليمن ، فإن البيئة كمسرح للعملية التاريخية لاتحتل مكانة كبيرة فى هذا التراث ، بسبب طبيعة فكرة التاريخ لدى عرب ذلك الزمان ، والأنماط التى انصبت فيها معارفهم التاريخية . إذ لم يكن لدى عرب ما قبل الإسلام تصور واضح لدور البيئة فى الحدث التاريخى . وكما كان القصور يعتور فكرتهم عن دور الزمان فى الظاهرة التاريخية فإن البيئة لم تلعب دوراً هاماً فيما خلفوه لنا من تراث تاريخى . حقيقة أن بعض أيام العرب ارتبطت بأسماء بعض الأماكن فى جزيرة العرب ، ولكن هذا لم يكن نتاجاً لوعيهم بدور البيئة بقدر ما كان

---

(١) عن هذه التطورات انظر : Marwick, The Nature of History, pp. 28-55; Barnes, A hist. of historical writing, pp. 55-1135 .

(٢) لاتهتم هذه الدراسة بمناقشة النظريات الحديثة التى طرحها فلاسفة التاريخ، ومن ثم فإننا سنكتفى بالإشارة إلى بعض المصادر والمراجع التى تتناول هذه الموضوعات فى نهاية الكتاب .

محاولة للتمييز بين هذه «الأيام»[١] ولعل إهمال العرب قبل الإسلام لدور البيئة قد نتج عن أمرين : أولهما أن وظيفة «أيام العرب» كنمط من أنماط المعرفة التاريخية لم تكن تتعدى خدمة الأغراض القبلية من حيث تدعيم مكانة القبيلة فى مواجهة القبائل الأخرى بسرد بطولات الماضى ، وهو ما يؤدى إلى التغاضى عن جوانب هامة فى المعرفة التاريخية بمعناها المعروف والمتعارف عليه . وثانيا ، أنه ربما كان إهمال العرب ماقبل الإسلام لدور البيئة فى العملية التاريخية ناجماً عن حقيقة أن الوطن بالنسبة لهم - أو لغالبيتهم - كان مكاناً متغيراً غير ثابت بحكم حياة البداوة ، ولم يكن ثمة تفاعل إيجابى بين الإنسان والبيئة لخلق الفعل التاريخى . إذ كان التفاعل الوحيد الممكن آنذاك تفاعلاً سلبياً ؛ فحين تعجز البيئة عن تلبية حاجة البدوى من الماء والعشب ، كان يرحل عنها إلى غيرها .

وعلى الرغم من اختلاف مظاهر البيئة التى عاش فيها العربى قبل الإسلام اختلافا يكاد يجعل منها مواطن متعددة ، فإن العرب قد عاشوا فى هذه الرقعة الواسعة فى تنظيم قبلى . فقد كان بلاد الحجاز ونجد

---

(١) انظر مثلا «يوم ذى قار» الذى تغلبت فيه قبيلة بكر على الفرس . وعلى الرغم من أن «ذى قار» اسم للمكان الذى جرت فيه هذه المعركة فإن رواية هذا اليوم من أيام العرب تخلو من أى وعى بدور البيئة ولو حتى مجرد الوصف الجغرافى لها- راجع :

محمد أحمد جاد المولى وآخرون ، أيام العرب فى الجاهلية (دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٤٢م) ص٦ - ص٣٩ .

بادية ورمال لانهاية لها ، وصحراء تندر فيها عيون الماء ومنابت الزرع ، على حين كانت بلاد اليمن جنات خضراء عرفت نظاماً زراعياً مستقراً منذ القدم . ومن ثم فإن المجتمع العربى قبل الإسلام انقسم إلى عدة أوطان متغيرة داخل الوطن الواحد ؛ إذكانت لكل قبيلة وطنها الذى قد تغيره وترحل عنه إلى وطن جديد تحت وطأة الظروف المعاكسة . وأدى هذا إلى أن المكان ، باعتباره مسرح العملية التاريخية ، لم يكن له وجود واضح فى الفكر التاريخى الذى عرفته بلاد العرب قبل الإسلام .

ومع ظهور الإسلام وانتصاره جاء القرآن بمفهوم جديد تماماً لدور البيئة أو المكان فى قصة الإنسان فى هذا العالم . ذلك أن آيات القرآن الكريم جاءت تحمل مفهوماً للبيئة يقوم فى أساسه على أمرين : أولهما أن الله قد خلق مظاهر الطبيعة التى يعيش الإنسان فى رحابها لكى تكون وسيلة يتوسل بها هذا الإنسان لمعرفة خالقه ومظاهر قدرته وآيات إبداعه. ويحفل القرآن بالكثير من الآيات التى تدل على هذا . ففى قوله تعالى : ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن فى ذلك لآيات للعالمين﴾[١] مثال على ماذهبنا إليه . وهناك أمثلة عديدة متواترة فى القرآن ، منها قوله تعالى : ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم مافى السموات ومافى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولاكتاب منير﴾[٢] كما جاء بالقرآن الكريم ﴿ألم تر أن الله يولج الليل فى

---

(١) سورة الروم : آية ٢٢ .

(٢) سورة لقمان : آية ٢٠ .

النهار ، ويولج النهار فى الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير﴾[١] وكذلك قوله تعالى : ﴿والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا ، فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها ، كذلك النشور﴾[٢] .

وفى مواضع أخرى كثيرة يشير القرآن إلى مظاهر الطبيعة والكون باعتبارها براهين على قدرة الله الذى خلقها ودليلا على حكمته . والأمر الثانى أن القرآن يشير إلى أن للطبيعة دوراً فى صياغة التاريخ على أساس أن الله قد خلقها وسخرها لخدمة الإنسان ومساعدته فى إعمار الأرض وتحقيق الغاية من حمل الإنسان للأمانة التى عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأشفقن منها ، وحملها الإنسان . ويورد القرآن الكريم ما يؤكد ذلك فى سورة النحل فى قوله تعالى : (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين . هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون .وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم

---

(١) سورة لقمان : آية ٢٩ .

(٢) سورة فاطر : آية ٩ .

يعقلون . وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون ، وهو الذى سخرالبحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لايخلق أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الله لغفور رحيم﴾[١] .

وهناك آيات كثيرة فى القرآن تؤكد معنى أن البيئة ومظاهر الطبيعة التى خلقها الله مسخرة لخدمة الإنسان ومساعدته : فقد جاء فى سورة البقرة [٢] ﴿إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ . كذلك جاء فى سورة إبراهيم [٣] ﴿الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا كم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار. وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار﴾. هذه الآية وغيرها كثير[٤] تؤكد ما ذهبنا

---

(١) سورة النحل : آية ٥-١٨ .

(٢) آية ١٦٤ .

(٣) آية ٣٢ - ٣٣ .

(٤) أنظر على سبيل المثال سورة الأعراف : أية ١٠ وآية ٥٧ ، وسورة الحج آية ٥٦ .

إليه من أن فكرة التاريخ فى القرآن الكريم تتضمن أن البيئة ، أو الطبيعة وما فيها ، مخلوق ليكون مسخرا للإنسان يساعده على الحياة فوق هذا الكوكب ، وانجاز مهمة تعمير الكون التى أوكلها الله إليه . والقرآن حين يتحدث عن البيئة يتحدث عن كل معطياتها سواء فى البحر أو على الأرض أو فى السماء ، فالسحاب والبحر والمطر والليل والنهار والأمطار والشمس والقمر ، وما تنبته الأرض ، وما يعيش فى جوف البحر أو يسعى ويدب فوق سطح الأرض .. كل هذا مسخر للإنسان الذى كرمه الله سبحانه وتعالى . وهنا يقرب القرآن بين الإنسان الأول إلى عبادة مظاهر الطبيعة . لقد عرف الإنسان الأول روحا يعبدها بإزاء كل مظهر من مظاهر الطبيعة ، فقد عرف روح الرعد الغاضبة ، وروح الريح المشغولة ، وروح المطر الباكية . كما عرف روح الأنهار التى اتسمت باللطف وروح الغابات التى كان سمتها الغموض ، كما أن الإنسان الأول قدم القرابين والأضاحى إلى آلهة وأرواح أخرى كثيرة وعبد النجوم والكواكب . وكانت عبادة قوى الطبيعة هى أول ديانات الإنسان. بيد أن علاقة الإنسان بهذه الأرواح التى تخيلها بإزاء مظاهر الطبيعة كانت علاقة محورها الخوف والرهبة[١] .

أما فى الإسلام فالطبيعة قد خلقت من أجل الإنسان ، وعليه أن يستخدم معطياتها فى صنع حضارته . فإن الله سبحانه قد استخلف

---

(١) Joseph Gare, How the great religions began (The New American Library 1956) pp. 15-20 .

الانسان فى الأرض ، وتتكرر الإشارات إلى مسألة الاستخلاف هذه كثيرا فى القرآن الكريم[1] . وقد اقتضت حكمة الله أن تكون الخلافة من أجل إعمار الأرض . وعلى هذا الأساس قامت علاقة من نوع خاص بين البشر والطبيعة ، وهى علاقة بين سيد فاعل مريد هو الانسان ، وكتلة خاضعة له مسخرة لأغراضه هي الطبيعة ، وعن هذه العلاقة يقول باحث معاصر .. «إننا هنا بإزاء علاقة (تغاير) نوعى حاسم بين الجماعة البشرية المريدة الفاعلة ، وبين كتلة العالم والطبيعة التى لاتملك قدرة ذاتية ولا فعلا مرسوما لمجابهة الإنسان .. إنها أساسا وفق المعطيات القرآنية ، قد سخرت له تسخيرا . وإن الله سبحانه قد حدد أبعادها وقوانينها ونظمها وأحجمها بما يتلاءم والمهمة الأساسية لخلافة الإنسان فى العالم ، وقدرته على التعامل مع البيئة تعاملا إيجابيا فاعلا.. »[2].

لقد شاءت إرادة الله أن يكون هناك حوار بين الإنسان والطبيعة ، وأن يتخذ هذا الحوار شكل التوتر والتحدى الذى يدفع الإنسان باستمرار إلى محاولة اختراق حجب أسرار الطبيعة . فالإنسان يكشف مزيدا من قوانين الطبيعة بمرور الزمن ، كما يستخدم طاقاته الإبداعية فى تسخيرها . ولم يشأ الله أن يكشف للإنسان عن قوانين الطبيعة دفعة

---

(١) انظر على سبيل المثال سورة فاطر : آية ٣٩ ، والأعراف ، أية ٦٩ ، يونس: أية ١٤ ، والنحل آية ٦٢ ، والأنعام : آية ١٦٥ ، والأعراف : آية ١٢٩ ، والنور : آية ٥٥ .

(٢) عماد الدين خليل ، التفسير الإسلامى للتاريخ (دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٥) ، ص١٩٩ – ص٢٠٨ .

واحدة ، لأن في ذلك إهمالا لطاقاته الكامنة وقدرتها على الفعل والكشف والابتكار. ومن تجربة الخطأ والصواب يتوصل الانسان باستمرار إلى الأساليب والابتكارات الجديدة .

ولما كانت الخلفية التى قامت عليها ثقافة المؤرخين المسلمين هى الخلفية القرآنية بطبيعة الحال ، فإن تصور المسلمين لدور البيئة فى العملية التاريخية لم يخرج عن هذا الإطار . ولعل عبد الرحمن بن خلدون وأفكاره عن البيئة ودورها فى تشكيل الفعل التاريخى يعتبر تجسيدا لأفكار المؤرخين المسلمين حول هذا الموضوع . فقد بين ابن خلدون كيف أن الله خلق الإنسان وقدراته الذاتية أقل كثيرا من قدرات الحيوانات وهو هنا يكشف عن حقيقة بسيطة ، على الرغم من كونها على جانب كبير من الأهمية . فقد خلق الله لكل حيوان أدواته وأسلحته وملابسه المركبة فى جسده . أما الإنسان فكان عليه أن يستخدم عقله فى البحث عن وسائل تضمن له القوت والمسكن والملبس والدفاع عن النفس . ولما كان تحقيق أى من هذه المطالب خارجا عن قدرة الإنسان الفرد ، فقد تعين على الإنسان أن يعيش فى مجتمع يتعاون أفراده فى سبيل تحقيق هذه المطالب . هذا الاجتماع هو الذى يسر للإنسان أن يتفاعل مع بيئته ويصنع تاريخه . ولقد لخص ابن خلدون هذا المفهوم فى قوله : « .. فإن هذا الاجتماع ضرورى للنوع الإنسانى ، وإلا لم يكمل وجوهم وما أراده الله من إعمار العالم بهم واستخلافه إياهم . وهذا هو معنى العمران الذى جعلناه موضوعا لهذا العلم .. »[1] .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص٤١ .

هنا يوضح ابن خلدون الغاية فى خلق الإنسان ، ومن حياته على الأرض . فالله خلق الإنسان واستخلفه فى الأرض لكى يعمرها ، ولا يمكن أن يتم هذا العمران بدون الاجتماع الإنسانى (أى الحياة فى جماعات) الذى يمكن الانسان من استغلال بيئته التى سخرها الله لخدمته. وقد أدرك ابن خلدون أهمية البيئة فى صنع الفعل التاريخى بشكل واضح ، وأفرد حيزا كبيرا فى مقدمته للحديث عن جغرافية الأرض وأثرها فى «العمران» . ففى حديثه عن الربع الشمالى من الأرض قال إن برودة الجو فيه جعل النشاط الإنسانى أكثر «.. فلذا كان العمران فى الربع الشمالى أكثر وأوفر ..» وأوضح أن العمران فى منطقة خط الاستواء أقل بسبب حرارة الجو وما تسببه من خمول . ثم يولى ابن خلدون البيئة اهتماما خاصا تحت عنوان «تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا» حيث يذكر أقاليم الأرض ومنتجات كل إقليم وأسلوب معيشة سكانه وديانتهم، بل إن الأهم من ذلك هو الفصل الذى عقده للحديث عن البيئة تحت عنوان «فى اختلاف أحوال العمران فى الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار فى أبدان البشر وفى أخلاقهم»[1] .

وعلى المستوى التطبيقى تكشف لنا المصادر التاريخية الإسلامية عن حقيقة أن المؤرخين المسلمين قد أدركوا ما للبيئة من أهمية فى تكوين الظاهرة التاريخية . فالمؤلفات التى تناولت التاريخ العام ، منذ بدء الخليقة ، لم تغفل الحديث عن أقاليم الأرض وتقسيمها الجغرافى وأهم

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٤٩ .

الملامح الجغرافية ، فضلا عن سكان كل إقليم ونشاطهم الحضاري ودياناتهم وملابسهم .. وما إلى ذلك .

والتجسيد الأمثل لمدى إدراك المؤرخين المسلمين لأهمية البيئة هو المؤرخ علي بن الحسين المعروف بالمسعودي ، فهو مؤرخ وإخباري من الطراز الأول ، كما أنه من علماء الجغرافيا المبرزين ، فقد سافر كثيرا وتجول في أنحاء العالم الإسلامي سعيا وراء المعرفة ، كما أنه لم يكتف بالقراءة والمشاهدة وإنما أخذ يجمع المعلومات عن بلاد العالم شرقا وغربا من أهلها الذين كان يصادفهم في حياته ، فيسأل الواحد منهم عن وطنه وقومه وعن عاداتهم وأكلهم ومشربهم وملابسهم .. وما إلى ذلك . وفي كتابيه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» و «التنبيه والاشراف» تظهر ميزته كمؤرخ وجغرافي في آن معا [١] .

كما يتضح هذا التجسيد واضحا في كتابات المؤرخين المصريين الذين كانوا ، عادة ، يبدأون حديثهم عن «فضائل مصر» أي خصائصها ثم نيلها وأرضها وتفاصيلها الجغرافية ، كمقدمة ضرورية للحديث عن تاريخ البلاد . وكان المؤرخون المسلمون في كل بلد من بلاد العالم الإسلامي يكتبون عن فضائل البلد الذي يعيشون فيه .

وعلى أساس دور البيئة في تشكيل العملية التاريخية قامت عدة نظريات في الفكر الحديث لمحاولة تفسير التاريخ الإنساني ورصد القوانين المحركة له ، والتفسير الماركسي للتاريخ في إطاره الكلاسيكي،

---

(١) علي أدهم ، بعض مؤرخي الإسلام (مكتبة نهضة مصر) ص٤٩ – ص٥٩.

وفى التفسيرات الحديثة التى بزغت منه ، يمثل اتجاها رئيسيا فى الفكر الإنسانى الذى يهتم بالبيئة كعنصر هام فى الفعل التاريخى . كما أن نظرية أرنولد توينبى عن التحدى والاستجابة تمثل القطب البورجوازى المواجه للقطب الاشتراكى فى تفسير التاريخ . وهى نظرية تعتمد بشكل شامل على دور البيئة فى الفعل التاريخى .

وعلى أية حال ، فإن علاقة التاريخ بالجغرافيا تكشف عن مدى أهمية البيئة كمسرح للعملية التاريخية . فبين التاريخ والجغرافيا (التى يعترف بها العالم الآن كعلم اجتماعى أصيل) من الروابط والصلات مايفوق أية روابط أو صلات تربط التاريخ بغيره من العلوم الاجتماعية . وثمة مؤلفات تاريخية كثيرة فى تاريخ كتابة التاريخ حازت شهرتها لأنها اعتمدت بشكل أساسى على خلفية من المعلومات الجغرافية عن الأماكن التى شهدت الأحداث التاريخية التى تعرضت لها هذه المؤلفات[1] .

أما الإنسان فهو منفذ العملية التاريخية . مادام ميدان التاريخ ومجال بحثه هو ماضى النشاط البشرى ، فإن الارتباط بين الإنسان بوصفه فاعلا تاريخيا ، والتاريخ الذى يهتم بدراسة الفعل الإنسانى ومحاولة تفسيره يبدو غاية فى الوضوح . وليس بوسعنا أن نتصور وجود ظاهرة تاريخية لاترتبط بالإنسان . إذ أن ذلك لن يكون تاريخا بالمعنى الذى نقصده ، وإنما سيكون نوعا من التاريخ الطبيعى الذى يختلف تمام

---

(١) Marwick, The Nature of history, pp. 106-109 .

الاختلاف عن التاريخ كعلم الإنسان . ومهما اختلفت الآراء وتضاربت حول وعى الإنسان أو عدم وعيه بالدور الذى يقوم به فى التاريخ ، وحول تأثير الفرد فى الفعل التاريخى[١] فإن من البديهى أن الإنسان هو أداة صنع التاريخ ، فلولا جهود الإنسان منذ سعيه على سطح الأرض لما وجد التاريخ مجالا لعمله ، ولما وجد مبررا لوجوده .

ومن ناحية أخرى ، فإن التاريخ كنشاط اجتماعى له وظيفته المحددة يبدأ مع بداية الوجود الإنسانى نفسه . ويبدأ التاريخ فى شكله الجنينى منذ بدأ الإنسان نفسه يسجل شيئا عن ماضيه بطريقة أو بأخرة مبتكرا بذلك معرفة جديدة تساهم فى بناء الفكر الإنسانى والحضارة الإنسانية . ذلك أن الإنسان سجل تاريخه ، حتى قبل أن يتوصل إلى الكتابة ، من خلال ما خلفه من رسوم ساذجة على جدران الكهوف التى عاش فيها ، أو ما حفظته لنا الأرض من أدواته الحجرية أو العظمية . وإذ كنا قد رأينا أن التاريخ (بمعنى السجل الكلى للنشاط الإنسانى) ، يرجع فى أصله إلى أى تسجيل ، أيا كان ، عن الوجود أو النشاط الانسانى ، فإن على المرء أن يبحث عن البدايات الأولى للتاريخ من خلال بقايا المواد

---

(١) هناك مجموعة من الدراسات حول هذا الموضوع سيجدها القارئ مثبتة فى قائمة المصادر والمراجع ولكننا نحيله إلى كتاب يعرض لأهم اتجاهات الفكر المعاصر حول هذا الموضوع هو كتاب سيدنى هوك المسمى البطل فى التاريخ .

Sidney Hook, The hero in history (Boston 1957)

كما أن الموضوع مطروح للبحث عند جميع فلاسفة التاريخ منذ فولتير حتى ارنولد توينبى..

ذات الشكل المتمايز ،والتى صنعت من خامات تتحمل عاديات الزمن بحيث صارت دليلا على ما أنجزه الإنسان فى تلك الفترة التى سبقت ابتكار الكتابة .

هذا إذن هو الجانب الأول من جوانب العلاقة بين الإنسان والتاريخ . وهنا يمثل الإنسان ركنا هاما ، وقاعدة ضرورية يقوم عليها التاريخ . بيد أن ذلك لا يعنى أن العلاقة بين التاريخ والإنسان علاقة «تغاير» بين فاعل ومفعول ، وإنما العلاقة بين الإنسان والتاريخ علاقة جدلية ، بمعنى أن الإنسان يصنع التاريخ كما يصنع التاريخ الإنسان . وكل منهما يؤثر فى الآخر ويترك بصماته عليه . وهو مايعنى أن ارتباط الإنسان بالتاريخ ليس قاصرا على الماضى فحسب بل هو ارتباط يمتد فى الماضى ويعيش فى الحاضر ، ويستشرف آفاق المستقبل . فالواقع أن الماضى فى التاريخ ليس فترة زمنية منقطعة ، وإنما هو موجود فى الحاضر أيضا ، كما أن آثاره سوف تمتد إلى المستقبل . فالانسان فى حاضره ، ومستقبله، جزء من ماضيه . وما الحاضر الذى نعيشه سوى نتاج لما تم من تفاعلات وإنجازات حضارية فى الماضى .

وإذا كان الشعراء وعلماء النفس يرددون دائما أن «الطفل هو أبو الرجل» فإنهم يعنون بذلك أن الإنسان فى سن النضج يحمل فى داخله ذلك الطفل الذى كان ، أى أنه متأثر فى تكوينه العقلى والنفسى بما تلقاه فى مرحلة طفولته من خبرات وتجارب وما تلقاع من تعليم أو تدريب كون لديه تراثا أثر على تركيبه العقلى والنفسى وبنية شخصيته

حين وصل إلى مرحلة النضج . وعلى مستوى النوع الإنسانى ككل ، يحيا الماضى فى الحاضر . فالبشر يعيشون تراثهم (أى تاريخهم أو ماضيهم) فى حاضرهم . إذ إن تراث الجماعة البشرية فى مجتمع ما يترك بصماته على عادات وسلوك هذا المجتمع فى حاضره ومستقبله .

وإذا كان التاريخ «علما متزمنا» كما سبق القول ، فإن هذه الصفة تمثل وجه الارتباط الثانى بين الانسان والتاريخ وتؤكده . إذ إن الإنسان هو الوحيد بين الكائنات الذى يخضع لصيرورة الزمن ويعيها ويفيد منها. فالإنسان وحده بين الكائنات الموجودة على سطح الأرض هو الذى يمكنه تمييز آنات الزمن . ولايمكن للكائنات الأخرى أن تميز بين آنات الزمن (الحاضر . المستقبل . الماضى) ، كما أن مرور الزمن لايضيف إلى أجيالها أية خبرات تحتفظ بها فى ذاكرتها ، وتنقلها أجيالها السابقة إلى أجيالها اللاحقة . بمعنى أن الزمن ، فى مساره الدائم ، لايصنع للكائنات غير البشرية أى تراث . أما الإنسان فإن وجوده فى رحاب الزمان وتفاعله مع البيئة يتيح له دائما أن يتعرف على ما هو جديد . وهذا الجديد ، الذى يضاف إلى خبرات الإنسان فى رحلته عبر الزمان .. يصبح بعد تراكمه تراثا تستفيد منه الأجيال اللاحقة باستمرار[١] . والتراث . كما هو معلوم ، أحد معانى التاريخ . ولعل هذا هو ماجعل بعض الباحثين يقول بأن «الإنسان حيوان تاريخى» .

---

(١) شاكر مصطفى ، التاريخ هل هو علم ؟ ص١٨٢ – ص١٨٣ .

وبعبارة أخرى ، فإن الماضى الإنسانى متواجد دائماً فى حاضر الإنسان على مستوى الفرد وعلى مستوى النوع [١] . فالعادات والتقاليد والمؤسسات ، والقوانين ، والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والفنون ، واللغة ، والملابس، والإنجازات المادية على شتى المستويات ، وخصائص الفكر الإنساني نفسه ، بل والشخصية الانفرادية التى تميز إنسان العصر الحديث .. كلها أمور ليست وليدة الحاضر ، ولكنها بالتأكيد حصيلة تجارب وخبرات تمثل تراثاً يمكن تتبع أصوله فى الماضى القريب أو فى الماضى البعيد . وهذا التراث هو التاريخ فى أحد معانيه . ومن ثم فإن القول بأن التاريخ يصنع الإنسان يبدو واضحاً من خلال حقيقة أن تاريخ الإنسان يحكم تصرفاته . فمن خلال تراث الإنسان تتشكل شخصية الجماعة الإنسانية كما تتحدد درجة وعيها الحضارى . ولعل هذا يفسر لنا تفاوت المستويات الحضارية بين الجماعات البشرية على الرغم من أن الجميع يحيون فى أخريات القرن العشرين . وسبب هذا التفاوت فى رأينا راجع أساسا إلى مدى عمق المسيرة الحضارية التى قطعتها كل جماعة فى الزمن من ناحية ، وإلى فترات الصعود أو التدهور التى تعرضت لها كل من هذه الجماعات من ناحية أخرى .

وثمة صورة أخرى من صور إفادة الإنسان من عملية الزمن ، هى تلك التى تتمثل فى الحقيقة القائلة بأن إنسان العصور الحديثة يختلف عن

---

(١) Carl G. Gustavson, A preface to history (Mc Graw-Hill 1955) pp. 12-23 .

إنسان العصور الوسطى ، الذى يختلف بدوره عن إنسان العصور القديمة بحكم درجة الوعي الحضاري لدى كل منهم . ودرجة الوعي الحضارى هى تأثير التاريخ على وعى وإدراك كل منهم وفقاً للعصر الذى عاش فيه . ولا يؤثر التاريخ ، بوصف عملية زمنية ، على الكائنات الأخرى : فالجيل الحالى من أشجار المانجو مثلا ، لن يختلف عن الجيل اللاحق بسبب مرور الزمن . وهذا الكلام ينسحب على أسراب البط أو قطعان الأغنام أو شجيرات القطن .

ومع بداية الكتابة التاريخية لم يكن للإنسان ، كفاعل تاريخى ، دور واضح فى العملية التاريخية . فقد اتسمت الكتابات الأولى بأنها تسجيل لأفعال ليست من قبيل جهود الإنسان ، ولكنها من الأفعال الإلهية ، ولم تكن الإنسانية فى هذا التاريخ الدينى تمثل عنصراً من عناصر القوة والنشاط ، ولكنها كانت وسيلة هذا النشاط ، كما كانت فى الوقت نفسه أداته المسخَّرة[١] .

وقد سار اليهود شوطاً بالتاريخ نحو توضيح الدور الإنسانى فيه ، ولكن اعتقادهم بأنهم «شعب الله المختار» جعلهم يسجلون فى أسفارهم التاريخية ما فعله الله بهم وما أتاه من أجلهم. وفكرة اليهود عن التاريخ تدور حول «شعب إسرائيل أولا» ثم حول البشرية عامة . ويرى بعض علماء اليهود أن الله يتصرف فى تاريخ الإنسان وله فيه هدف[٢].

---

(١) روبين جورج كولينجوود ، فكرة التاريخ ص٥١ - ص٥٢ .

(٢) آلبان ج . ويدجرى ، التاريخ وكيف يفسرونه من كنفوشيوس إلى توينبى (ترجمة عبد العزيز جاويد) الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢ ص٨٥ - ص٩٢.

ويرى بعض الباحثين أن الكتابات التاريخية العبرية تحدد ظهور أول القصص التاريخي الحقيقي في تاريخ كتابة التاريخ . ويمثل سفر الملوك في العهد القديم الفكر التاريخي العبراني خير تمثيل ؛ فهو يوضح استخدام التاريخ «لتعليم الحكمة من خلال الأمثلة» فالكاتب يهدف إلى إقناع شعبه بأن الإخلاص الديني له قيمته وذلك من خلال وضع أمثلة تاريخية على المصائب التي حاقت بالعبرانيين لأنهم تخلوا عن دينهم الوطني[١]. وعلى أية حال ، فإن فكرة التاريخ اليهودية التي تدور حول خلاص بني اسرائيل قد انتقلت على نحو ما إلى فكرة التاريخ المسيحية التي جسدتها كتابات أوغسطين .

وقد فطن الإغريق إلى أن التاريخ علم ، أو من الممكن أن يكون علما، ومن ثم لابد أن يعرض لأعمال الإنسان . والتاريخ الإغريقي ليس من قبيل الأساطير ، وإنما هو من قبيل البحث العلمي . وعلى حد تعبير كولينجود : «إنه محاولة للإجابة عن أسئلة تتعلق بأمور يعتقد الإنسان أنه يجهلها ، وهو ليس بالتاريخ الديني وإنما هو تاريخ إنساني والمشاكل التي يتصدى لعلاجها ليست من قبيل الإلهيات ، وإنما هي من قبيل أعمال الإنسان ونشاطه ..» [٢] . لقد حظيت كتابات هيرودوت بإقبال الناس بسبب سعة مجالها الجغرافي واهتمام هيرودوت برصد أحوال الشعوب وعاداتها وتقاليدها . أما المؤرخ ثوكيديديس (الذي يحتل مكانة هامة في تاريخ الفكر التاريخي عند الإغريق) فقد اعترف بأن

---

(١) Barnes, A hist. of historical writing. pp. 19-20 .

(٢) كولينجوود فكرة التاريخ ، ص٥٦ – ص٥٧ .

إرادة الإنسان من الاسباب التى تصنع التاريخ ، وإن كان قد تصور أن مدى قوة الإرادة الإنسانية محدود[١] . وقد كان موقف المؤرخين الإغريق عموماً من الإنسان كفاعل تاريخى متسقاً مع موقف كل من هيرودوت وثوكيديديس .

وقد سار الرومان فى فهمهم للتاريخ ، كعلم إنسانى ، على درب الإغريق . ولم يخرجوا بذلك عن موقفهم من شتى نواحى الثقافة الإغريقية التى ورثوها . وفى مجال كتابة التاريخ كانت الإسهامات الرومانية الأصلية محدودة للغاية . بيد أن موقفهم من الإنسان كفاعل تاريخى ، ظل فى جوهره هو موقف الإغريق . وهكذا سادت صفحات الحوليات والمدونات التاريخية الرومانية أخبار الحوادث السياسية والحروب والثورات والمؤتمرات ؛ وكلها من شئون البشر الخالصة[٢] .

ومع بداية العصر المسيحى كان للتتابع التاريخى معنى ومغزى حقيقياً . فقد صار التاريخ فى نظرهم ملحمة مقدسة تمتد من الخليقة حتى يوم الحساب . وقد تطور هذا المفهوم رويداً رويداً على أيدى الآباء حتى اتخذ شكله النهائى الحاسم فى كتاب «مدينة الله» الذى ضمّنه القديس أوغسطين أهم ملامح فلسفة التاريخ المسيحية . وقد اعتبرت فلسفة التاريخ التى حاول أوغسطين الرد بها على خصوم المسيحية أن العملية التاريخية ليست سوى المظهر الفعلى للصراع بين الله وقوى

---

(١) ويدجرى ، التاريخ وكيف يفسرونه ، ص٥٣ – ص٥٨ .

(٢) Barnes, A hist. of historical writing. 36-40; Marwick, The nature of history, p. 26 .

الشر، أو هى صراع بين «مدينة الرب» و«مدينة الشيطان» . وإذا ما وضعنا فى اعتبارنا مثل هذه الخلفية الفلسفية التى حكمت المؤرخين المسيحيين ، أدركنا السبب فى موقفهم من الإنسان وعدم وضوح دوره كفاعل تاريخى فى كتاباتهم. لقد خلط مؤرخو العصور الوسطى المسيحيون بين الأمور المقدسة والأمور الإنسانية : فقد اعتبرت الحوادث على أنها أحكام من الله كما سلم أولئك المؤرخون بوقوع الخوارق والمعجزات[١] ولأنهم اعتقدوا فى تدخل المشيئة الإلهية فى العملية التاريخية ، فإن أياديهم كانت مكبلة عن استخدام التحليل فى السببية التاريخية .

أما التصور القرآنى لرسالة المسلمين فى الحياة الدنيا ودورهم فى عمران الأرض وإقامة الحق والعدل فى ربوعها ، فقد قام على أساس مبدأ الغاية التى تغياها الله سبحانه من خلق الكائنات والكون . والإنسان من بين جميع هذه الكائنات جميعاً هو الذى كرمه الله بأن جعله خليفته على الأرض ، كما ميزه بالعلم والحرية والإدراك والمسئولية ، إذ جاء فى القرآن الكريم : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً)[٢] كما جاء فى موضع آخر من القرآن الكريم :

---

(١) عن هذا الموضوع انظر :

Bawke, The essential Augnstine, pp. 220-42 .

Cantor, Medieval history, pp. 76-101 .

Barnes, A hist. of historical writing, pp. 42-50 .

(٢) سورة الأحزاب آية ٧٢ .

﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون﴾[١] ولأن الإنسان مسئول عن وجوده فى الحياة الدنيا، خليفة لله تعالى ، فهو فاعل تاريخى . وهو مسئول عن مصيره . والآيات القرآنية التى تحمل فى ثناياها مادة تاريخية تؤكد هذه المسئولية وتشير إلى مبدأ تاريخى محدد : هو مسئولية المجتمع الإنسانى عن مصيره . ويوضح القرآن أن مجرى التاريخ البشرى له سمة إنتقائية ؛ بمعنى أنه يفرز الذين لايصلحون أخلاقيا عن أولئك الذين يمكنهم أن يؤدوا بنجاح دور حملة الراية على المستوى الثقافى والحضارى بالمعنى الأخلاقى والروحى للكلمة . والقرآن يوضح هذا المعنى بأمثلة مستمدة من الطبيعة أحياناً مثل قوله تعالى : [٢] ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾ . والقرآن هنا يؤكد على القوة الذاتية فى الحق ، وعلى الإخفاق الذى يحيق بالباطل : ﴿قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ [٣] ويرى بعض الباحثين[٤] أن العملية التاريخية ،

---

(١) سورة البقرة آية ٣٠ .

(٢) سورة الرعد : آية ١٧ .

(٣) سورة الأنعام : آية ١١ .

(٤) Mazheruddin Siddiqi, The Qur'anic Concept of History, (Karachi 1965), pp. 4-5 .

فى المفهوم القرآنى انتقائية لهذا السبب ؛ فالتاريخ يميل إلى حفظ كل ما له قيمة بالنسبة لبنى الإنسان ، ويترك كل ماعدا ذلك للهلاك والفناء . والقرآن هنا يشير إلى الجانب القيمى فى الحق الذى يكشف عن نفسه فى سياق التاريخ ، كما يؤكد القرآن باستمرار على الهدف النهائى الذى لايتحقق سوى بمراعاة القانون الإلهى .

لقد منح الله الحرية للإنسان منذ البداية لكى يصنع تاريخه الفردى والجماعى ، ولكى يشكل مصيره اعتماداً على ما يتمتع به من قوى العقل والإرادة والإنفعال والحس والحركة [١] . وإذا كانت القاعدة الأساسية هى أن الكل من خلق الله ، فإن الإنسان يمتلك حريته الكاملة فى التخطيط والتنفيذ واستخلاص النتائج . وذلك أن الإنسان يمارس حريته الكاملة فى حدود قدراته وخبراته وإمكاناته الذاتية والظروف البيئية . ومن المحتم أن تأتى النتيجة التاريخية انبثاقاً طبيعياً عن التجربة التى خاضها الإنسان . فبدون حرية لن يكون هناك أبداً معنى للموقف الإنسانى أو مغزى للخير والشر ، كما أن يوم الحساب سوف يفقد معناه ومغزاه لأنه لا حساب بدون حرية .

وهناك آيات قرآنية كثيرة تشير إلى أن الدمار التاريخى الذى حاق بجماعات بشرية سابقة وفى حقب زمانية متنوعة ، إنما كان نتاجاً لظلم البشر فى هذه الجماعات وفجورهم وإجرامهم . فقد جاء فى سورة يونس،

---

(١) عماد الدين خليل ، التفسير الإسلامى للتاريخ ، ص١٣٨ - ص١٤٠ .

مثلا قوله تعالى : ﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، وما كانوا ليؤمنوا ، كذلك نجزى القوم المجرمين﴾[١] كما جاء قوله تعالى فى سورة الأنعام ﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين﴾[٢] كذلك جاء فى سورة آل عمران : ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾[٣] . هكذا يوضح القرآن أن مايحل بالمجتمع من تفكك وتدهور مترتب على الفعل الإنسانى الخاطئ . ومن ناحية أخرى ، فإن إمكانية تقدم المجتمع وازدهاره مرهونة بالتزام المجتمع القواعد الأخلاقية والروحية التى تنص عليهاالشريعة [٤] .

ويسوق القرآن أمثلة تاريخية عديدة للتدليل على صدق هذا المبدأ ، ولكى يوضح للمسلمين أن الالتزام بالقواعد الأخلاقية والروحية يساعد على بناء الحضارة ، على حين يؤدى إهمالها إلى انهيار الحضارة وخراب المجتمع الإنسانى . هذا المفهوم القرآنى لمسئولية الإنسان فى الفعل التاريخى تؤكده العبارات التعقيبية الواردة فى نهايات القصص القرآنى

(١) سورة يونس : آية ١٣ .

(٢) سورة الأنعام : آية ٦ .

(٣) سورة آل عمران : آية ١٣٧ - ١٣٨ .

(٤) عفت الشرقاوى ، أدب التاريخ عند العرب ، جـ١ ، ص٢١٣ - ٢١٤ .

التاريخى مثل : ﴿فاعتبروا يا أولى الأبصار﴾ [١] و : ﴿لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب﴾ [٢] .. وما إلى ذلك من عبارات تؤكد هذا المعنى . هذا الموقف من الإنسان كفاعل تاريخى هو الذى جعل المؤرخين العرب يبحثون دائماً فى العلاقة السببية بين الظواهر التاريخية، وهو الذى أدى إلى ذلك التطور الهائل الذى وصل إليه علم التاريخ فى التراث الثقافى العربى .

وإذا كنا قد تعرضنا فى الصفحات السابقة لجانبين متقابلين من جوانب العلاقة بين الإنسان والتاريخ ، وخرجنا بنتيجة مؤداها أن الإنسان يصنع التاريخ كما أن التاريخ يصنع الإنسان بقدر أو بآخر ؛ فإن هذا يقودنا إلى الحديث عن جانب آخر من جوانب العلاقة بين الإنسان والتاريخ ، وأعنى به جدوى التاريخ بالنسبة للإنسان [٣] .

---

(١) سورة الحشر : آية ٢ .

(٢) سورة يوسف : آية ١١١ .

(٣) عن هذا الموضوع انظر :

Marwick, The Nature of History pp. 12-18; Cantor, Medieval history. pp. xix-xxiii.

إدوارد كار ، ماهو التاريخ ؟ (ترجمة ماهر كيالى وبيار عقل ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٧٦م) ص٦١ - ص٩٦ ؛ كولنجوود ، فكرة التاريخ ، ص٣٩ - ص٤٣ ؛ أ . ل ، رواس ، التاريخ أثره وفائدته (ترجمة مجد الدين حفنى ناصف - سلسلة الألف كتاب) ص١ - ص٢٦ ؛ أحمد محمود صبحى فى فلسفة التاريخ ، (منشورات الجامعة الليبية ، بدون تاريخ) ص٦٣ - ص٨٢ .

والواقع أنه يمكننا القول بأن للتاريخ ضرورة اجتماعية ؛ فكل جماعة بشرية فى حاجة إلى المعرفة التاريخية لكى تتعرف على ماضيها الذى يساعدها على تفهم حاضرها وتلمس طريقها إلى مستقبلها . لقد كانت دهشة الإنسان الأول من مظاهر الطبيعة والكون ، ومن وجوده الذى يبدو لغزاً مستعصياً على الحل ، وراء التساؤل الفطرى الأول الذى جعل الإنسان يبحث عن التفسير فى الأساطير التى كانت أولى نتائج العقل البشرى فى هذا السبيل . وفى رحم الأسطورة ولدت كل علوم البشر ، ومن بينها التاريخ بطبيعة الحال . واهتمام الإنسان بالتاريخ راجع فى حقيقة أمره إلى رغبة الإنسان فى التعرف على خبايا الذات الإنسانية على أساس أن معرفة الذات هى أولى الخطوات على طريقة المعرفة الحقيقية . وعلى هذا الأساس فإننا يمكن أن نقول إن اهتمامنا بالتاريخ يرجع إلى نفس السبب الذى يدفع الباحثين إلى تسلق قمم الجبال ، أو الغوص فى أعماق البحار ، أو ارتياد الصحراء واقتحام الغابات ، أو اختراق أجواز الفضاء إلى الكواكب الأخرى بدافع من الرغبة فى المعرفة. والسبب دائما هو البحث عن الحقيقة والمعرفة . وإذا كانت العلوم والمعارف الإنسانية الأخرى تساعد الإنسان على فهم الكون من حوله ، فإن التاريخ يساعده على الكشف عن حقيقة الوجود الإنسانى على سطح الأرض .

إن خصائص الطبيعة البشرية يمكن التعرف عليها من خلال أفعال البشر . وهذه الأفعال كامنة فى طيات أحداث التاريخ الإنسانى . وإذا كانت المعرفة هى أسمى غايات الإنسان ؛ فإن هذه المعرفة تظل ناقصة مبتورة إذا لم يحقق الإنسان معرفته بذاته . والتاريخ هو العلم الذى

يمكنه أن يمد لنا يد المساعده فى هذا السبيل . فإننا ندرس التاريخ لنفس السبب الذى يدفعنا إلى دراسة أى موضوع آخر يتعلق بالإنسان ؛ ألا وهو معرفة خبايا النفس البشرية وحل اللغز المتعلق بوجودنا فى هذا الكون. وفى رأى سقراط أن الحياة التى لاتخضع للبحث والاستقصاء ليست جديرة بأن نحياها ، وأننا لاندخل منطقة الوعى بوجودنا الإنسانى وننطلق على سبيل الحكمة سوى حين نفتش عن حقيقة طبيعتنا كبشر . ولكن ، هل تقتصر دراسة الطبيعة البشرية على دراسة الكائن البشرى المفرد ؟ وهل يمكن أن نعتبر الذاكرة البشرية محصورة فى نطاق الإنسان الفرد ، وأن نتجاهل الذاكرة الجامعة للجنس البشرى كله ؟ هذه الذاكرة الجامعة لبنى البشر هى تاريخهم .

التاريخ يؤكد على أن تجربة الإنسان تجربة فريدة سواء على مستوى الفرد أم على مستوى الجماعة . فعندما نقرأ التاريخ نبدأ فى اكتشاف الحقيقة القائلة بأن الحياة متنوعة مختلفة وأن لكل جزء فيها خصائصه الداخلية . وأيا كانت جاذبية التشابهات بين الماضى والحاضر ، فإن التاريخ يعلمنا حقيقة هامة مؤداها أن الماضى لايمكن أن يتكرر أبداً ؛ أو بعبارة أخرى لايمكن أن يعيد التاريخ نفسه بيد أن هذا لايعنى أن التاريخ قصة تنتمى إلى الماضى ، ولكنه يقدم لنا أسباب الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ونتائجها ، ويوضح لنا أن لاشئ يحدث صدفة . كذلك يعلمنا التاريخ ألا نركن إلى النمطية ، وألا نعتقد أن مافشل مرة سيفشل ثانية ، أو العكس . كذلك ينفعنا التاريخ فى تصحيح الكثير من التصرفات الناجمة عن الإفراط فى الثقة بالنفس ؛ لأنه يذكرنا أننا بشر . ولأن التاريخ يهتم بالأسباب ، فإنه يوسع من مدى إدراكنا

للعملية الاجتماعية ، إذ يحاول أن يقدم رؤية أكثر تنظيماً للمشكلات الاجتماعية التى تزعجنا . وهناك قدر كبير من الصحة فى ملاحظة سانيتانا القائلة : «إن أولئك الذين لايعرفون التاريخ قد يقعون فى منزلق تكراره» . وذلك أن معرفة ما أنجزه المجتمع فى الماضى قد يكون مفيداً من حيث إنه يذكرنا بالبدائل والإمكانات القائمة فى الحاضر .

وهذا ، بالضبط ، مما يعانى منه العالم العربى فى العصر الحالى . فبسبب الجهل بالتاريخ والإنجازات التى تمت فى رحاب الحضارة العربية الإسلامية ، تظل المجتمعات العربية تدور فى حلقة مفرغة وهى تبحث عن حلول لمشكلاتها لدى الحضارة الغربية التى يتعامل معها كثير من العرب باعتبارها حضارة مرجعية لابد أن يقاس كل شئ بمقياسها ، دون أن ننظر فى تاريخنا . وعلى أية حال ، فإن معرفة التاريخ لن تدلنا على مانفعله بالضبط ، ولكنه قد يساعدنا على عدم تكرار الأخطاء ثانية . ومجتمع اليوم قد يأخذ من ماضيه شيئاً يمكن أن يكون له هاديا ومرشداً؛ لأن التاريخ يحمل نظام تحذير داخلى لمن يعرفون كيف يستمعون إليه .

ولا يزعم التاريخ أنه يقدم حلولاً للمشكلات : وإنما هو يحاول تحديد المشكلات والتعرف عليها ، كما يوضح السبب فى حدوثها ووقت حدوثها وكيفية حدوثها . فالتاريخ يدرس الماضى الإنسانى الذى هو عبارة عن تراكم غامض لحقائق غير منظمة تبدو وكأن الصدفة تحكمها ، على الرغم من أن هناك قوانين تحكم مجرى العملية التاريخية . والقرآن حين يأمر المسلمين بالنظر والتأمل والتدبر فى حوادث التاريخ يحاول أن يبين لهم من خلال مفاهيم العظة والعبرة التجارب التى مرت على الجماعات البشرية ، والتى ينبغى على المسلمين أن يتعلموا من دروسها .

ويوضح القرآن الكريم أن التغيرات التاريخية لاتحدث فجأة وإنما نتيجة لتراكم بطئ للأسباب التى ينجم عنها تغيير كبير بعد فترة زمنية معقولة[١] .

هذه الأمور كلها تعيها الذاكرة الجماعية للجنس البشرى ، أى تاريخه. والواقع أننا لانستطيع أن نتجاهل هذه الذاكرة الجماعية إذا كنا نريد تحقيق المعرفة الكاملة بالذات الإنسانية . ذلك أننى جزء من كل ما قابلت فى حياتى من أحداث ، وعانيته من تجارب ، واكتسبته من خبرات ومعارف . ولايحدث لى هذا بصفتى الشخصية فحسب ؛ وإنما بصفتى عضواً فى جماعة إنسانية بعينها . ذلك إننا فى التركيب الشخصى لكل منا لانكون محكومين بعلاقاتنا الشخصية فقط ، ولكنا نكون محكومين بالتغيرات العديدة التى مرت بها الحياة الاجتماعية طوال رحلة الإنسان ، التى لم تتم ، عبر الزمان . وهذا هو مانسميه التاريخ .

ولنحاول أن نتخيل مجتمعاً فاقد الذاكرة ، منقطع الصلة بماضيه ولايعرف شيئاً عن تاريخه . إن مجرد محاولة تخيل وجود مثل هذا المجتمع أمر غاية فى الصعوبة ؛ بل هو ضرب من ضروب المستحيل . ومع ذلك فإن مثل هذا المجتمع ، إن وجد ، لن يكون سوى مجموعة من البشر الذين يمتلكون القدرات على التعلم واكتساب الخبرات لاغير .ذلك أن الماضى الإنسانى يعيش دائماً فى الحاضر ، بعد أن تنقله

---

(١) Siddiqi, The Quranic Concept of History, pp. 3-7

الأجيال المتعاقبة بما فيه من خبرات وإنجازات ، ومثل وقيم وأخلاقيات ، وفنون وعلوم وآداب ، بل وحتى الآثار المادية التي تتصل بهذا الماضي . ويعني هذا أيضاً ، أن كل مظهر من مظاهر حياتنا اليومية في العصر الحاضر – سواء كان مادياً أم معنوياً – ليس في حقيقة أمره سوى نتاج الماضي أو هو ميراث المجتمع عن ماضيه وليست من نتاج الحاضر بأي من الأحوال . فالعادات والتقاليد والفنون والقوانين الحاكمة للمجتمع ودستوره ومؤسساته ولغته ، إلى جانب المظاهر المادية للحضارة بشتى صنوفها – كلها تشكل ميراثاً حضارياً يعود إلى الماضي ويتفاعل الإنسان به في حاضره فيضيف إليه أو يعدله . وهذا الميراث الحضاري مظهر من مظاهر المعرفة بالتاريخ ، والجهل بهذا الميراث (أي الجهل بالماضي أو بالتاريخ) يعني أن تكون الجماعة الإنسانية قطيعاً من الكائنات الإنسانية ذات القدرة على التعلم لاغير ، شأنهم في ذلك شأن الطفل حديث الولادة الذي هو في حقيقته حيوان يملك قدرات كبيرة على التعلم .

وهكذا فإن معرفة الماضي – من خلال الدراسة التاريخية – تساعد على تفهم الطبيعة الإنسانية من خلال دراسة فعال الإنسان وتصرفاته . ومن ثم فإن معالجتنا لأمور الحاضر ومشكلاته ستكون معالجة أفضل . فالرجل الذي يتمتع بمعرفة دقيقة لما حدث في الماضي يقترب أكثر من الفهم الكامل للطبيعة البشرية ، وبالتالي فهو قادر على أن يتصرف بالحكمة والثقة النابعتين من معرفة الحقائق . ويجب علينا أن ننبه في هذا المجال إلى أن المعرفة السليمة بالتاريخ لن تجعلنا نتنبأ بالمستقبل

على نحو روائى بسيط ، ولكنها حين تقودنا إلى الاقتراب من المعرفة الكاملة بالإنسان ، من خلال فعاله فى الماضى ، سوف تساعدنا على التصرف بحكمة أكثر ؛ لأننا نعرف أكثر .

لقد كانت لكل مجتمع رؤيته لوظيفة التاريخ الحضارية فى خدمة هذا المجتمع وأهدافه . وفى حدود هذه الرؤية لجدوى الدراسة التاريخية ووظيفتها الحضارية تعددت أنماط الكتابة التاريخية التى تخدم هذه الرؤية . ومع تطور المجتمعات البشرية تطورت النظرة إلى الوظيفة الحضارية للتاريخ بحيث تتوافق مع أهداف كل مجتمع وآماله وتلبى حاجاته الثقافية والاجتماعية .

ومن هنا تعددت "قراءات" التاريخ وفقاً للحاجات الاجتماعية / الثقافية لكل مجتمع ، وفى إطار الظروف التاريخية الموضوعية لكل عصر . فالتاريخ يحدث مرة واحدة ؛ ولكنه يُقْرأ ، أو يتم تفسيره ، عدة مرات . والعناصر التى ربما كانت موضع الإهتمام فى "قراءة" التاريخ فى عصر ما ، قد يتم تجاهلها وتركيز الضوء على عناصر غيرها فى عصر آخر . ولأن التاريخ علم يبحث فى سيرة الإنسان على الأرض فى رحاب الزمان ، فإن كل "قراءة" جديدة تكشف عن جانب جديد فى هذه السيرة.

القسم الثانى

فى تطور منهج البحث التاريخى



قبل البداية

تقوم هذه الدراسة على أساس مفهوم محدد للمنهج نلتزم به ، ومؤداه أن المنهج هو مجموعة العمليات العقلية الاستدلالية التى تستخدم فى حل مشكلات العلم ، وبناء العلم نفسه فى مرحلة ما من تاريخه . وهو مايعنى بالنسبة لهذا البحث أن مناهج البحث التاريخى تتطور فى كل مرحلة من مراحل تطور علم التاريخ نفسه ، ومن ثم فإن هناك علاقة جدلية بين بنية العلم المعرفية ومناهج البحث فى هذا العلم بحيث تناسب مناهج البحث المرحلة (التاريخية) فى تطور العلم من جهة ، كما أنها تساعد العلم على الانتقال لمرحلة أخرى بمناهج جديدة من ناحية ثانية .

وتقوم هذه الدراسة ، أيضا ، على أساس من الجمع بين تطور مناهج البحث فى الدراسات التاريخية وتطور علم التاريخ نفسه . ونحن مع الرأى القائل إن أى حديث عن المنهج بمعزل عن الحديث فى العلم ومشكلاته عبث لا طائل من ورائه . ومن ثم ، فإن الدراسة تحاول أن توضح أن كل مرحلة من مراحل تطور الدراسات التاريخية قد اعتمدت على وسائل منهجية أساسية كانت تناسب البحث فى مشكلات المعرفة التاريخية فى حينها ، فضلا عن أن المراحل الجديدة فى تاريخ تطور الدراسات التاريخية ومناهج البحث المرتبطة بها لم تكن تقضى على المناهج القديمة ، وإنما كانت تأخذ منها مكان الصدارة لتفسح بدورها المجال لمناهج جديدة فى أى تطور لاحق للعلم ومناهجه *

---

* اعتمدنا على الصياغة النظرية لهذه المشكلة فى الدراسة القيمة التى أعدها الصديق الدكتور حسن عبد الحميد عن (أوهام المنهجية) وقد ناقش مشكلة الفصل بين البحث فى المناهج والبحث فى العلم نفسه ، وماينتج عن ذلك من أخطاء . =

-١-

منذ بدأ الإنسان يسعى على سطح الأرض راوده سؤال مايزال يلح فى طلب الإجابة حتى الآن : من أين ، ولماذا ، وإلى أين ؟

وعلى الرغم من أن الأسطورة ، والفكر الدينى ، والفلسفة ، والعلم ، قد حاولوا جميعا تقديم الإجابة على هذا السؤال اللغز المرتبط بوجود الإنسان فى الكون ، فإن هذه السؤال مايزال ، بالنسبة للإنسان ، لغزا محيرا مضنيا . ومايزال السؤال مطروحا على نحو أو آخر .

وفى طيات المحاولات الدائبة التى بذلها الإنسان للحصول على إجابة مرضية لهذا السؤال ظهر (علم التاريخ) باعتباره أحد الأدوات التى يستخدمها الإنسان لفهم حقيقة الوجود الإنسانى ، فى ماضيه وحاضره ومستقبله . وهكذا تحددت ، منذ البداية ، قيمة المعرفة التاريخية بوظيفتها الثقافية / الاجتماعية . ومن ثم كانت المعرفة التاريخية ، سواء فى شكلها الأولى المثقل بالعناصر الأسطورية والدينية، أو فى تطورها الحالى الذى جعل من علم التاريخ علمًا متعدد الفروع ، يطور مناهجه وتطوره مناهجه باستمرار لكى يقوم بوظيفته الثقافية / الاجتماعية فى خدمة الإنسان نقول إن المعرفة التاريخية كانت ملازمة لوجود أية جماعة بشرية أيا كانت درجة نموها الحضارى .

= وقد عرض لأبعاد المشكلة التى تنجم عن توهم أن المنهج يمكن أن يكون منفصلا عن العلم نفسه . أنظر :

حسن عبد الحميد ، «أوهام المنهجية» بحث فى الكتاب التذكارى بمناسبة بلوغ الدكتور زكى نجيب محمود الثمانين من عمره بعنوان : الدكتور زكى نجيب محمود فيلسوفا وأديبا ومعلما ، (الكويت ١٩٨٧م) ، ص٣٩٥-٤٢٣ .

وفى غمار تلك الرحلة الطويلة التى قطعتها المعرفة التاريخية كانت تحاول الإجابة على الأسئلة التى يطرحها الإنسان فى محاولته الدائبة لمعرفة ذاته ، وفى كل مرحلة من مراحل هذه الرحلة الطويلة كانت مناهج البحث تتطور بحيث تلبى غايات وحاجات الدراسات التاريخية فى تلك المرحلة .

وليس من المتصور ، بطبيعة الحال ، أن الوظيفة الثقافية / الاجتماعية للمعرفة التاريخية كانت واضحة لدى الجماعات الإنسانية الباكرة بدرجة وضوحها الحالية ، بيد أن إحساس الجماعة الإنسانية بالحاجة إلى المعرفة التاريخية كان قائما وموجودا على الدوام . لقد كانت الجماعات البشرية فى بداية رحلتها ، التى لم تتم بعد ، عبر الزمان تشعر بالحاجة إلى هذه المعرفة التاريخية ، ولكن وعى الإنسان بحقيقة هذا النمط من أنماط المعرفة ، ومناهج البحث التى تصلح لكل مرحلة من مراحل تطوره والأركان التى يقوم عليها ، لم يتحقق سوى بعد رحلة طويلة لعلم التاريخ فى رحاب الزمان سارت فى خط مواز لرحلة الإنسان نفسه . وفى أثناء هذه الرحلة تطورت مناهج البحث فى التاريخ وتطورت بنيته المعرفيه ، وتخطت طور التراكم والوصف ، وصولا إلى طور يحاول صياغة قوانين ونظريات تفسر حركة التاريخ ، وتنوعت مدارس فلسفة التاريخ التى تصوغ موضوعاتها على أساس المعرفة التاريخية والتفسير الوضعى لهذه المعرفة من ناحية ، ومحاولة الفهم التقويمى الأخلاقى لحياة البشر الاجتماعية من ناحية أخرى [١]

---

(١) ب.ب. جريجوريان ، الفلسفة وفلسفة التاريخ ، ترجمة هيثم طه ، ومراجعة رضوان القضمانى (دار الفارابى ، بيروت ١٩٨٦م) ، ص٥ .

كما تنوعت أنماط الدراسات التاريخية على نحو جعل من علم التاريخ ، الذى ينتمى إلى ماضى الإنسان الحضارى ، علما بحاضر الإنسان ومستقبله من حيث الهدف .

هذه الرحلة الطويلة التى قطعتها المعرفة التاريخية ، منذ نشأت فى رحم الأسطورة حتى تطورها العلمى المثير فى العقود الأخيرة ، كان هدفها معرفة الإنسان فى حياته الاجتماعية ، وفى إطار ثقافته . ولم يكن ممكنا أن تتطور المعرفة التاريخية فى جانب بعينه بعيدا عن بقية جوانبها . ومن ثم ، فإن فلسفة التاريخ التى تبحث فى اتجاه حركة التاريخ ، والقوى الفاعلة فى هذه الحركة ، ومضمون التاريخ ومغزاه ، كانت تتطور بشكل يوازى تطور مناهج البحث فى الدراسات التاريخية بهدف تطوير كيفية الحصول على المعلومات ، وتحليلها ، وعرضها ، ثم محاولة كشف العلاقة السببية داخلها وصولا إلى استنتاجات قد تفيد فى تحقيق الهدف النهائى من الدراسة التاريخية .

وفى الوقت نفسه كانت النقلة النوعية فى مناهج البحث تواكبها نقلة كمية فى التراكم المعرفى داخل علم التاريخ نفسه . وقد أدى هذا الوضع إلى فرض نمط من التخصص فى الدراسات التاريخية بحيث انقسمت إلى فروع يهتم كل منها ببحث أنماط التطور الإنسانى عبر التاريخ على مستوى بعينه ، فظهر التاريخ الاجتماعى ، والتاريخ الإقتصادى ، والتاريخ العسكرى ، والتاريخ الفنى ، والتاريخ الثقافى .. وما إلى ذلك .

ومع هذه التطورات كان على المشتغلين بالدراسات التاريخية أن يطوروا مناهجهم وأدواتهم البحثية ، وكان كل تطور على هذا المستوى

يدفع بالدراسة التاريخية إلى تطور جديد . وهكذا كانت مناهج البحث فى الدراسات التاريخية فى علاقة جدلية بعلم التاريخ نفسه ، ودخلت هذه الخطوات العقلية والاستدلالية التى اصطلح على تسميتها بالمنهج فى بنية العلم الأساسية ، ولم تكن مجرد ممارسة عقلية منفصلة عن علم التاريخ الذى حمل تجربة الإنسان الحضارية وقصته فى الكون . والحاصل أن أركان المعرفة التاريخية جميعها قد خضعت لنوع من التفاعل الداخلى يحتم علينا محاولة تتبع الخطوط العامة لهذه التطور .

بيد أن هذه الدراسة سوف تركز اهتمامها على التراث الإسلامى من جهة ، والتراث الغربى من جهة أخرى. وفى تقديرنا أن الشرعية العلمية لهذه المحاولة تقوم على أساس توضيح إسهام الفكر العربى فى تطور الدراسات التاريخية فضلا عن بيان دور الفكر التاريخى الأوربى الذى مايزال يتولى ريادة الفكر التاريخى بعد أن وصل به إلى آفاقه الراهنة.[١]

---

(١) لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع أنظر :

Barnes, H. E, History of Historical Writing, 2 nd ed, (Dover, New york 1963).

أيضا : ألبان ج . ويدجرى ، التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس إلى توئبى، ترجمة عبد العزيز جاويد ، القاهرة ١٩٧٢م .

-٢-

منذ البداية حاول الإنسان التعرف على ماضيه لكى يفهم حاضره من ناحية ، ولكى يجد فى هذا الماضى سنداً ودعماً لوجوده الآنى فى إطار الجماعة من ناحية أخرى . وإذا كان الإنسان قد لجأ إلى الأسطورة لتفسير اللغز المتعلق بوجوده فى الكون ، ولتفسير الظواهر المحيطة به ، فإن محاولته هذه كانت هى الخطوة الأولى لبناء المعرفة العلمية سواء فى مجال التاريخ أو غيره . فقد كانت الأسطورة ملاذ الإنسان حين كان العقل البشرى مايزال فى طور طفولته الأولى . وبغض النظر عن التفسيرات المختلفة للأسطورة(١) ، فإن الأسطورة حاولت ترقيع النقص فى ذاكرة الإنسان ، وفى معرفته عن الكون والأشياء . وقد ظهرت أساطير الخلق لتحاول الإجابة على الأسئلة المتعلقة بالخلق والتكوين وأصل الإنسان ، وعلاقته بالكون . وكانت هذه الأساطير هى المحاولة الأولى للحصول على إجابات يحتاجها الإنسان لتفسير وجوده وقصته فى العالم .

وإذا كان البعض يصف الأسطورة بأنها (العلم البدائى) فإنه ينبغى علينا أن نشير إلى أن المعرفة التاريخية قد ولدت من رحم الأسطورة ، وتربت وترعرعت فى حجرها . إذ أن أحداث القصص الأسطورية تدور حول أصول الأشياء ونهاياتها . وهنا نجد المجتمع الإنسانى يلجأ إلى أساطيره للحصول على التفسيرات المطلوبة لمختلف الظواهر الغامضة ، سواء فى الطبيعة، أو فى ماضى التطور الإنسانى. ومن ثم فإن بذرة (التاريخ) التى زرعت فى تربة الأسطورة أخذت تنمو بالتدريج وبشكل

---

(١) أنظر المناقشة الموجزة والمفيدة فى هذا الموضوع عند :

مطرد مع تزايد تحرر الكتابة التاريخية من الخيال والرمز الذى ميز "الكتابات التاريخية" الأولى . وإذا كان تصور التاريخ على أنه علم تصور حديث نسبيًا ، فإن التاريخ ، من حيث كونه سجلاً لنشاط البشر وسعيهم لبناء الحضارة ، قد بدأ مع بداية المجتمع الإنسانى نفسه. ولايقلل من أهمية هذه الحقيقة حقيقة أخرى مؤداها أن العناصر "الأسطورية" كانت أكثر من العناصر "التاريخية" فى هذه الكتابات المبكرة .

لقد حاولت الأساطير الأولى أن تفسر ماصعب على الإنسان إدراكه فى بداية رحلته الكونية ، بيد أن الأسطورة ، من ناحية أخرى ، عجزت عن توضيح البعد الزمنى والبعد المكانى فى القصة التاريخية . فالزمن فى الأسطورة متداخل دونما تحديد ، لأن بناءها يقوم على أساس أن الزمن لم ينته بل مايزال مستمرا . ولذلك فإن الفكرة الأسطورية عن الزمان كيفية ومجسمة ، لا كمية مجردة . فالفكر الأسطورى لايعرف الزمن بوصفه تعاقبا للحظات زمنية متشابهة مثل الدقائق والساعات والأيام والشهور والسنوات ؛ وإنما كان الزمن فى الأسطورة كتلة زمنية واحدة، كما أن الإنسان الأول لم يعرف فكرة الزمن التى تشكل لنا إطار التاريخ[١] كذلك فإن علاقة الأسطورة بالمكان هى بعينها علاقة البناء الفنى برموزه ، فالمكان رمز للأسطورة ولكنه ليس مسرحا حقيقيا لأحداثها التى تدور خارج حدود الزمان والمكان ولأن العملية التاريخية

= فراس السواح ، مغامرة العقل الأولى - دراسة فى الأسطورة : سورية وبلاد الرافدين : (دار سومر ، نيقوسيا - قبرص ، ط . سادسة ١٩٨٦م) ، ص١١-ص٢٣ .

(١) حسام الألوسى ، الزمان فى الفكر الدينى والفلسفى القديم ، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٠م) ص٣٩ -ص٤٠ .

ثلاثية الأبعاد ، إذ أنها تقوم على العلاقة الجدلية بين الإنسان وبيئته.. في إطار المكان ، فإن تطور المعرفة التاريخية كان يستوجب البحث داخل هذه المنظومة الثلاثية بحيث تحتم انفصال (التاريخ) عن (الأسطورة) في مرحلة لاحقة .

لقد أدخلت الأساطير مظاهر البيئة الطبيعية في نسيج القصة التي ترويها لمحاولة تفسير لغز الوجود الإنساني في الكون . ويرى بعض الباحثين أن أساطير العالم القديم ، التي تمثل "واحدا من أعمق منجزات الروح الإنسانية" كانت نتاجا لتأملات كونية عميقة من جانب الانسان . فهناك الكثير من الأساطير القديمة تتناول موضوعات مثل الحق ، ونظام الكون ، وشكل الإنسان ، وبناء الحضارة .[١] ومن ناحية أخرى ، فإن عدداً كبيراً من الباحثين يتفقون على أن الأسطورة تعبير عن وعي الجماعة الإنسانية بذاتها وإدراكها لهويتها ، كما أنها تعكس بناء الحياة الإجتماعية ، وعلاقة هذه الحياة بعالم الآلهة والقوى الغيبية[٢] .

لقد ربطت الأساطير الكنعانية ، مثلا بين ظروف البيئة من خصوبة أوجدب وبين صراع الإله بعل (رب الخصوبة والحياة) ، والإله موت (رب العقم والموت) [٣] أما أساطير الخلق الهندية فتكشف عن رغبة الإنسان الطبيعية في الوصول إلى تفسير للغز الوجود الإنساني - كيف وجد الكون؟ وكيف يعمل؟ ومن أين أتى الإنسان ؟ وما وظائف عناصر

---

(١) صمويل نوح كريمر ، أساطير العالم القديم ، ترجمة أحمد عبد الحميد يوسف- مراجعة عبد المنعم أبو بكر ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤م) ، ص٧-ص٨ .

(٢) قيس النوري، الأساطير وعلم الأجناس ،(بغداد ١٩٨١م) ص١٠-ص١١ .

(٣) صمويل نوح كريمر ، المرجع السابق ، ص١٥٩ ومابعدها .

الطبيعة ، وعلاقتها ببعضها البعض ؟ وما سر القمر والشمس والرياح والعواصف ، والفيضان والجفاف ؟[١] .

لقد اختلطت محاولات الإنسان الأولى لتسجيل تاريخه بالصياغات الأسطورية ، وفى هذه المحاولات لم يكن للإنسان أى دور واضح فى الفعل التاريخى فى هذه الصياغات الأسطورية . إذ اتسم التراث الباكر فى مجال الكتابة التاريخية بهذا الخلط المثير بين فعل الإنسان ومشيئة القوى الغيبية . وكانت الكتابات "التاريخية" الأولى تسجيلاً لأفعال ليست من قبيل الفعل الإنسانى ، وإنما هى من أفعال الآلهة . ولم يكن البشر فى هذه (التواريخ) الباكرة يمثلون عنصرا من عناصر القوة والنشاط والفعل ، ولكنهم كانوا وسيلة هذا النشاط وأدواته المسخرة بأيدى الآلهة[٢] . وهكذا كانت التسجيلات "التاريخية" الباكرة عبارة عن تواريخ حكومات الآلهة ، أو أشباه الآلهة . ولم يكن التاريخ قد نزل بعد من عليائه ليسجل قصة الإنسان فى الكون وسعيه لبناء الحضارة . وهنا نجد الأسطورة تحكم التاريخ ، فالأسطورة حكاية مقدسة تلعب أدوارها الآلهة وأشباه الآلهة .

وبطبيعة الحال ، فقد نزلت الأسطورة من سماء الآلهة إلى عالم الإنسان ، وبدأت ترصد تاريخه وتسجله وفق شروطها وفى إطار رموزها وقد اختلف الباحثون حول هذا الأمر ، إذ يذهب البعض إلى أن الأساطير "تسجيل تاريخى" للأحداث الجارية عبر ماضى الجماعات الإنسانية والشعوب ، على حين يذهب البعض الآخر إلى القول إن الأسطورة تمثل

---

(١) نفسه ، ص٣٨٤ - ص٣٨٥ .

(٢) روبين جورج كولينجوود ، فكرة التاريخ ، ترجمة محمد بكير خليل ، مراجعة محمد عبد الواحد خلاف (لجنة التأليف والنشر والترجمة ، القاهرة ١٩٦٨م) ، ص٥١ ص٥٢ .

تاريخاً قبلياً متوارثاً بين الأجيال المتعاقبة التى تناقلته بالتلقين لشفاهى، ونادراً ما تأخذ الأسطورة أشكالاً أو نماذج محددة ، بل إنها غالبًا ماتنطوى على عناصر يمتزج فيها الخيال بالخرافة ..[1]

وفى رأينا أن الأسطورة لاتحمل التاريخ كله ، وإنما تحمل "نواة تاريخية" ، وغالبًا ما تكون الصياغات الأسطورية لهذه "النواة التاريخية" محملة بتراكمات تعبر عن وجدان الجماعة التى أنتجتها ، كما أنها - فى الوقت نفسه - تعبير عن الذات والهوية وتحمل تصورا نفسيا تعويضيا لصالح الجماعة أكثر من كونها تجسيدا للواقع "التاريخى".

ولايعنى هذا أن الأسطورة نتاج للخيال المجرد ، وإنما هى ترجمة لملاحظات واقعية ورصد لحوادث جارية ولكن فى إطار فنى يخدم الأهداف الثقافية الاجتماعية التى يحتاج المجتمع لتحقيقها من خلال أساطيره . وعن طريق الأساطير ، ومن خلالها ، عرفنا ماعرفناه عن تجارب الأولين وخبراتهم المباشرة التى تعود إلى أزمان سحيقة تسبق "التاريخ المكتوب" . ومن هنا يمكن القول بأن الأساطير "نظام فكرى متكامل ، استوعب قلق الإنسان الوجودى ، وتوقه الأبدى لكشف الغوامض التى يطرحها محيطه"[2]

ومن يبحث فى الأسطورة سوف يجد مادة تاريخية ثرية تشكل بنا مها؛ ففى رأى فريق من الباحثين أن أساطير الطوفان ، أو الدمار بالنار السماوية ، أو الأعاصير ، التى تتسم بالشمولية وتتكرر لدى

---

(١) قيس النورى ، المرجع السابق ، ص١٩ .

(٢) فراس السواح ، مغامرة العقل الأولى ، ص٢١ .

معظم الشعوب ، دلالة على تجارب وخبرات عاناها الجنس البشرى فى مطلع حياته[١] . ومن المهم أن نلاحظ أن هذه الأساطير التى تتعلق بالتكوين وفصل السماء عن الأرض قد سربت بعض تفاصيلها فى الكتابات التاريخية اللاحقة على نحو يكشف عن تأثير الأسطورة المتوارث فى منطقة الشرق العربى ، ولاسيما أساطير التكوين السومرية[٢] .

(١) نفسه ، ص١٦ .

(٢) نفسه ، ص٢٣ - ص٥٠ .

-٣-

وإذا ما أخذنا ماكتبه العبرانيون أنفسهم باعتباره تاريخاً ، فإننا سنجد أن العناصر الأسطورية والغيبية تمثل لحمة الكتابات العبرية "التاريخية" وسداها . بيد أن التراث العبراني ، من ناحية أخرى ، يمثل مرحلة أبعد سارها الفكر التاريخي حين اختلط بالفكر الديني .

ومن الممكن أن نتتبع ظهور العبرانيين في المنطقة من خلال نصوص سفر التكوين التي تدلنا على ثلاث موجات من هجرات العبرانيين ، الأولى هجرة ابراهيم (عليه السلام) ، وهو الجد الأعلى ، من مدينة "أور" الكلدانية في بلاد النهرين إلى أرض كنعان في فلسطين حيث استقر به المقام [١] . أما الهجرة الثانية فيقودها يعقوب بن اسحق ، حفيد ابراهيم (وهو نفسه إسرائيل) . ويتحدث سفر التكوين عن عهد يجدده الرب مع يعقوب[٢] . والهجرة الثالثة تقوم بها جموع اليهود الفارين من مصر بقيادة موسى (عليه السلام) ، وربما تكون قد حدثت في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد[٣] .

---

(١) جاء في سفر التكوين (١٣ : ١-٢) مانصه : (وقال الرب لابرام ، اذهب من أرضك ومن عشيرتك إلى بيت أبيك ، إلى الأرض التي أريك ، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك) .

(٢) يقول نص سفر التكوين (٣٥ :١٣) (والأرض التي أعطيت ابراهيم واسحق لك أعطيها ولنسلك من بعدك أعطي الأرض) .

(٣) فراس السواح ، مغامرة العقل الأولى ، صص١١٩ – ص١٢٠ .

هذه النصوص التوراتية التى تتحدث عن موضوعات تاريخية تعتبر من أقدم الكتابات (التاريخية) وإذا كانت الأسطورة قد سبقت (الكتابات التاريخية الدينية) ، فإن تأثير الأسطورة لم يختف وإن خفت حدته . ويحتل سفر الملوك فى التوراة اليهودية مكانة خاصة فى تاريخ الفكر التاريخى بفضل مايتضمنه من مادة تاريخية غزيرة .

ومن ناحية أخرى ، فإن التسجيلات العبرانية الأولى قد سارت شوطا أبعد بالتاريخ نحو توضيح الدور الإنسانى فيه ، وتقليل تدخل الآلهة والقوى الغيبية فى شئون البشر . بيد أن اعتقاد اليهود بأنهم (شعب الله المختار) جعلهم يسجلون فى أسفارهم أخبارا عن فعال الله من أجلهم وتدخله فى توجيه حركة التاريخ لصالحهم .

ولأن فكرة التاريخ لدى العبرانيين تتمحور حول فلسفة غائية هدفها طمأنة اليهود بوعدهم بالأمل فى المستقبل ، ولأن فكرة التاريخ العبرانية تدور حول بنى إسرائيل أولا ، ثم البشرية كلها بعد ذلك ، فإن كتابة التاريخ فى التراث العبرانى طورت منهجا يسعى إلى رسم الصورة المثالية لمسيرة التاريخ العالمى بحيث يتوافق مع فلسفة التاريخ العبرانية الغائية . وقد أدى هذا إلى أن صارت كتابة التاريخ فى التراث العبرانى لاتستهدف الحقيقة التاريخية ، وإنما تستهدف صياغة الرواية التاريخية وفق النموذج اليهودى وفى إطار فلسفة التاريخ اليهودية التى تؤكد أن الرب سوف يتدخل فى النهاية لصالح شعبه المختار .

وهناك من الباحثين من يرى أن اليهودية ديانة تطورت بفضل الميراث الثقافى للمنطقة . وربما تكون ديانة آتون التوحيدية فى مصر القديمة قد

أعطت اليهودية دفعتها الأولى[١] ، ثم أخذت بعد ذلك تتطور بفعل المؤثرات الثقافية السائدة فى المنطقة السامية . ويبدو ذلك واضحا من خلال الحقيقة القائلة بأن أسفار التوراة ، وهى الكتب الخمسة المنسوبة إلى موسى ، عليه السلام ، قد كتبت على مدى ثلاثة قرون . أما آخر أسفار العهد القديم ، وهو سفر المكابيين الأول وسفر المكابيين الثانى ، فقد تم تدوينه خلال القرن الأول قبل الميلاد .

ومن الواضح أن محتوى الكتب التاريخية اليهودية فى التوراة ، والمنهج الذى تعرض به أحداث التاريخ فى طيات هذه الأسفار ، يهدف إلى شىء آخر غير مجرد رواية الحوادث التاريخية ، أو تحليلها ، أو البحث عن الحقيقة التاريخية المجردة وراءها . وإنما يهدف إلى محاولة تفسيرها فى إطار منظور مستقبلى غائى يحدد الهدف الدينى .

فتاريخ بنى إسرائيل ، كما تصوره صفحات التوراة ، وكما هو فى الواقع التاريخى ، ملىء بالحروب والدماء والمصائب . وعلى الرغم من أنه يمكن تفسير ذلك فى ضوء أخطاء اليهود أنفسهم فإن كُتَّاب الأسفار اليهودية وضعوا التاريخ فى إطار يفسر تفسيراً يخدم الغايات الدينية اليهودية[٢] . لقد حاول كُتَّاب سفر الرؤيا اليهود أن يبثوا الطمأنينة فى نفوس أبناء دينهم ، وأن يلوحوا لهم بالأمل وسط دياجير الظلام واليأس. وكان طبيعيا أن يقدموا لليهود الوعد بالنجاح فى المستقبل

---

(١) كان اليهود يعيشون فى مصر عيشة العبيد الأذلاء ، ثم فروا منها بقيادة موسى عليه السلام - وقد فر موسى بقومه من مصر بعد أن كانوا تحت نير العبودية. أنظر فراس السواح ، مغامرة العقل الأولى ، ص١٢١ - ص١٢٩ .

(٢) ويدجرى ، التاريخ وكيف يفسرونه ، ص١٢٠ .

حين يتدخل الرب لإنقاذ شعبه المختار . ولما كان ماضى اليهود وحاضرهم ومستقبلهم يمثل قصة وجودهم فى العالم ، فقد حاول مفسر سفر الرؤيا[١] وضع تقسيم زمنى لتاريخ العالم يخدم الهدف الذى يسعون إليه ، وهو ربط أنظار اليهود بما سوف يحدث مستقبلا[٢].

هكذا كانت فكرة التاريخ لدى العبرانيين تتمحور حول فلسفة تاريخ غائية تفسح مجالاً واسعاً لدور الرب فى توجيه أحداث التاريخ . وقد أدى هذا ، بالضرورة ، إلى تخلف منهج البحث التاريخى ؛ لأن "الحقيقة التاريخية" لم تكن هدف هذا النمط من الكتابة . والمادة التاريخية فى أسفار العهد القديم لاتقدم الحدث التاريخى فى إطاره الوضعى ، وإنما تصوغه فى القالب الذى ينبغى أن يتقولب فيه لكى يتسق مع الغايات الدينية التى حكمت كتابة تاريخ اليهود وقصتهم فى العالم .

ويرى بعض الباحثين أن الكتابات التاريخية فى التوراة تحدد بداية ظهور القصص التاريخى الحقيقى فى تاريخ كتابة التاريخ ، وأن "سفر الملوك" يمثل فكرة التاريخ لدى العبرانيين خير تمثيل ، فكاتب هذا السفر يهدف إلى إقناع اليهود بأن الإخلاص الدينى له قيمته ، وذلك عن طريق وضع أمثلة تاريخية على المصائب التى حلت بهم عندما تخلوا

---

(١) أنظر تفسير حلم (نبوخذ نصر) فى سفر دانيال (٢ : ٣١-٤٥) ، وأنظر أيضا تفاصيل دانيال : سفر الرؤيا ، الإصحاح السابع .

(٢) قاسم عبده قاسم ، الرؤية الحضارية للتاريخ - قراءة فى التراث التاريخى العربى ، (ط . ثانية دار المعارف ١٩٨٥م) ص٣٢-ص٣٣ .

عن دينهم[١] . وفى رأينا أن الكتابة التاريخية بدأت فى شكلها الجنينى داخل الأسطورة ، وقد سربت أساطير الخلق والتكوين والأصول التى انتشرت فى المنطقة السامية قديما الكثير من عناصرها إلى التوراة التى ينسبها اليهود إلى موسى (عليه السلام)[٢] وقد أضاف إليها الأحبار اليهود مايخدم فكرة أن اليهود "شعب الله المختار" وفكرة الوعد بالأرض المقدسة والخلاص فى المستقبل .

ويهمنا فى الدراسة أن نؤكد على أن "العهد القديم" قد استوعب فكرة التاريخ بمضامينها السائدة فى المنطقة السامية منذ القدم : وهو مايعنى أن التراث الأسطورى الذى حكم فكرة التاريخ عند السومريين والبابليين والكنعانيين والمصريين القدماء قد اتخذ شكلا دينيا غائيا فى فكرة التاريخى العبرانية . فالنظرة اليهودية إلى التاريخ ترى فيه تاريخ بنى إسرائيل أولا ، ثم تاريخ البشرية بعد ذلك . ويعتقد عامة اليهود أن هدف التاريخ هو تشييد مملكة المخلص الذى سيأتى فى آخر الزمان ليقيم مملكة الرب فى أرض الميعاد . وقد فسر أحبارهم كل الأحداث التاريخية التى مرت عليهم ، أو مروا بها ، تفسيراً تعويضيًا يناسب هذه الفكرة . وهكذا لم يكن هدف "التاريخ" البحث عن الحقيقة : وإنما صياغة الحدث

---

(١) H. F. Barnes, A History of Historical Writing, (2nd ed. New yory, 1963), pp. 19-20 .

(٢) أنظر المقارنة الممتعة بين أساطير التكوين فى المنطقة السامية وسفر التكوين فى التوراة – فراس السواح ، مغامرة العقل الأولى ، ص٣٣ – ص١٤٠ .

فى إطار يناسب الهدف من كتابة التاريخ . وقد كان لهذا الموقف من التاريخ أثره بطبيعة الحال على مناهج البحث التى حاولت حل المشكلات التى تقف فى سبيل تحقيق هذا الهدف . وفى تلك المرحلة كانت مناهج البحث موازية فى تطورها للعلم الذى كرست لخدمته وبقدر مابعدت الكتابة التاريخية العبرانية عن التاريخ بالمفهوم العلمى الحديث ، بقدر ما كانت مناهج البحث بعيدة عن أن تكون وسائل عقلية استدلالية لبناء العلم التاريخى وحل مشكلاته .

هكذا ، إذن ، نصل إلى أن فكرة التاريخ فى المنطقة السامية القديمة (المنطقة العربية الآن) قبل ظهور الإسلام كانت مزيجا من الفكر الأسطورى والفكر الدينى الذى وضع التاريخ ، بأحداثه ووقائعه ، داخل نطاق فلسفة غائية تهدف إلى صياغة أحداث التاريخ لخدمة أهداف أخرى غير البحث عن الحقيقة ، أو رصد العلاقة السببية فى الظاهرة التاريخية وفى ظل هذه الظروف اختلطت الحقائق التاريخية بالتصورات الأسطورية والغيبية ، وبقى التاريخ عملية يشارك البشر فى صنعها وتتولى الآلهة توجيه مجراها . ولم يكن ممكنا فى ظل هذه الظروف الفكرية أن تتطور مناهج البحث التاريخى إلى آفاق جديدة تخطو بها نحو تحويل التاريخ إلى "علم" بالمعنى البسيط الذى يهدف إلى كشف "غير المعلوم" وكان هذا هو إطار فكرة التاريخ فى المنطقة بعد ظهور الإسلام الذى بدأت معه مرحلة جديدة من التطور كان للدراسات التاريخية ومناهج البحث نصيبها منه .

-٤-

قبل الخوض فى الحديث عن تطور مناهج البحث والفكر التاريخى فى إطار الحضارة العربية الإسلامية ينبغى أن نطرح عدداً من الأسئلة حول المعرفة التاريخية عند العرب قبل الإسلام وهذا التراث «التاريخى» العربى قبل الإسلام يدخل فى نسيج تراث المعرفة التاريخية للمنطقة كلها ؛ كما أن هذه التساؤلات تكتسب شرعيتها من حقيقة أن التراث التاريخى العربى قبل الإسلام كان من روافد الفكر التاريخى العربى بعد الإسلام .

الثابت أنه كانت للعرب قبل الإسلام أساطيرهم التى كان بعضها بمثابة الشكل الجنينى للمعرفة التاريخية فى فترة لاحقة من تاريخهم . وقد راودت العرب البدائيين الأسئلة نفسها التى روادت غيرهم من الشعوب فى طور بدائى من رحلتهم عبر الزمان عن حقيقة لغز الوجود الإنسانى فى الكون . ويرى أحد الباحثين أن دراسة الأساطير العربية قبل الإسلام "هى دراسة كل ماسطر عند الجاهليين ، تاريخا كان أو دينًا ، لأن الأسطورة هى صورة من صور الفكر البدائى حيثما كانت مسطورة أو مطبوعة فى ألواح الأذهان"[١] ولقد كانت البيئة الطبيعية التى أثرت

---

(١) محمد عبد المعيد خان ، الأساطير والخرافات عند العرب ، (ط. ثالثة ، دار الحداثة ، بيروت ١٩٨١م) ، ص٢٠-ص٢٢ .

فى التراث الأسطورى العربى هى التى أثرت على نمط المعرفة التاريخية لدى العرب بعد ذلك[١] .

لقد كان التراث الأسطورى العربى جزءاً من التراث الأسطورى العام فى المنطقة بطبيعة الحال . ومن ناحية أخرى ، كان لابد للمعرفة التاريخية لدى العرب قبل الإسلام أن تتخذ شكلا يوافق الحقائق والظروف البيئية ، ويتسق مع درجة التطور الثقافى فى ذلك الحين ، كما كان من الضرورى أن تصاغ فكرة التاريخ فى أنماط تلبى الحاجات الثقافية / الاجتماعية . لقد كان الفكر التاريخى العربى قبل ظهور الإسلام يسير فى مسارين أساسيين : الأنساب ، وأيام العرب ، فضلا عن القصص التاريخى أو شبه التاريخى الذى تناقله عرب الجنوب . ومن ثم ، فإن نمط المعرفة التاريخية ، وهدف هذه المعرفة ، قد حددا المنهج الذى استخدمته هذه الأنماط الباكرة من تراث الفكر التاريخى العربى .

ومن المهم أن نشير إلى أن التاريخ فى التراث العربى قبل الإسلام قد كان شأنا بشريًا لادخل للآلهة فيه ، ولكن الخيال لعب دوراً أساسيًا فى الرواية التاريخية ، كما أن "الصورة المثلى" للقبيلة حلت محل "الحقيقة التاريخية" فى كثير من الأحيان .

وإذا كان نوع المعرفة التاريخية وموضوعها وهدفها يحدد منهج البحث التاريخى ؛ فإن الحياة القبلية فى شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام قد فرضت أنماطا بعينها من أنماط المعرفة التاريخية كان منهجها يسعى إلى صياغة صورة مثالية تخدم الذات القبيلة وتحقق أمانيها بغض النظر عن الحقيقة التاريخية .

---

(١) قاسم عبده قاسم ، الرؤية الحضارية ، ص٦٣-ص٦٥ .

وقد استخدم العرب قبل الإسلام (الأنساب) باعتبارها نمطا من المعرفة التاريخية تناسب ظروف التنظيم القبلي . فقد حرصت كل قبيلة- باعتبارها الوحدة الأساسية على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي والأمني - على حفظ أنسابها حتى لاتختلط بأنساب غيرها من القبائل ، ولكي تكون وسيلتها في التناصر على أعدائها ، والتفاخر بآبائها وأجدادها . وقد أشار كل من النويري والقلقشندي إلى اهتمام العرب بالأنساب وتفاخرهم بها[١]، وكان لكل قبيلة نسابتها المشهورون الذين حفظوا شجرات النسب عن ظهر قلب نظراً لأهمية النسب في حياة القبيلة[٢]. والتقسيم على أساس النسب في المجتمع القبلي هو التقسيم الوحيد الممكن فقد أفرز المجتمع القبلي هذا التقسيم النسبي على مستوى التنظيم الاجتماعي ، كما أفرز نمطا من أنماط المعرفة التاريخية يناسب هذا التقسيم الاجتماعي تمثل في "أنساب العرب" . وعلى الرغم من أن الأنساب كانت نمطا من أنماط المعرفة التاريخية يخدم الحاجات الاجتماعية /الثقافية للمجتمع القبلي ، فإن هذا النمط نفسه كان يخلو عادة من الإشارة إلى الأحداث التاريخية التي لم تكن هدفا للأنساب أو موضوعا لها .

---

(١) النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، (طبعة دار الكتب المصرية) ، ج٢ ، ص٢٦١ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، ج٢ ، ص٣٠٨-ص٣٠٩ .

(٢) تبدو صلة النسابين بالشعر الجاهلي واضحة جلية ، إذ أننا نجد دائما أن ذكر علماء النسب يجئ مقرونا بالشعر ورواياته ، ويرتبط أيضا بأيام العرب وأخبارهم - أنظر ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية (ط. خامسة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٨م) ، ص٢١٥-ص٢١٦ .

أما النمط الثانى من أنماط المعرفة التاريخية عند العرب قبل الإسلام، فقد تمثل فى "أيام العرب" التى كانت تتضمن أخبار الحروب والمعارك التى خاضتها كل قبيلة . ولأن التنظيم القبلى كان يمثل الشكل السائد للتنظيم الإجتماعى والسياسى والإقتصادى ؛ فإن "أيام العرب" كانت بمثابة السجل الذى يحوى مفاخر القبيلة ، ويسجل أيامها وانتصاراتها المجيدة ، كما يحفظ بطولات أبنائها [١] . وكان رواة العرب يتداولون هذه "الأيام" فى قالب شعرى خالص أحيانا ، وفى قالب نثرى تتخلله الأشعار أحيانا أخرى . وقد كان منهج رواة "أيام العرب" متوافقًا مع الموضوع ومع الهدف الثقافى الاجتماعى لهذا النمط من أنماط المعرفة التاريخية . فقد حرص أولئك الرواة على رسم صورة مثالية للذات القبلية.

ولم يكن رواة "أيام العرب" يبحثون عن الحقيقة التاريخية ، وإنما كانوا يتحدثون عن مآثر أسلافهم ، وبطولات قبيلتهم ، وفقا لتصورهم أو أمانيهم . ولم يكن هناك مايقيدهم سوى الرغبة فى إمتاع

---

(١) عن أيام العرب ، موضوعاتها ، وأعدادها ، ومحاولات جمعها ، انظر القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج١ ، ص٣٩٠ – ص٣٩٥ ؛ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص٣٧٤-ص٣٧٦ ؛ محمود شكرى الألوسى ، بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب (القاهرة ١٩٢٤م) ، ج٣ ، ص٦٨ ؛ قاسم عبده قاسم، الرؤية الحضارية ، ص٦٨ – ص٧١ .

وقد جمع اثنان من الباحثين أربعة وثمانين (يوما) من أيام العرب انظر : محمد أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل ابراهيم (القاهرة ١٩٤٢م) .

السامعين ، ودغدغة مشاعر الزهو والفخر فى نفوسهم . وعلى الرغم من المسحة الخيالية التى تغلف "أيام العرب" فلاشك فى أن هذه الروايات "التاريخية الملحمية" قد نسجت حول نواة من الأحداث التاريخية حقا ؛ فهى تكشف عن صلات العرب بغيرهم من الأمم قبل الإسلام ، كما تكشف عن المشاكل والخلافات التى ميزت حياة قبائل العرب فى تلك الفترة من تاريخهم .

وإذا كانت "الأنساب" وسيلة القبيلة فى البحث عن هويتها ، وتأكيد ذاتها من خلال شجرة النسب ، فإن "أيام العرب" كانت بمثابة الأداة لتأكيد هذه الذات والهوية وتدعيم وجودها الحاضر من خلال ماضيها الحافل بالمآثر والبطولات .

وفكرة التاريخ عند أية جماعة إنسانية ليست فى حقيقة أمرها سوى شكل من أشكال فهم هذه الجماعة لهويتها الذاتية . ومن خلال إدراك الجماعة الإنسانية لذاتها تتحدد أبعاد فكرة التاريخ . وإذا رجعنا إلى تراث العرب قبل الإسلام فى مجال الفكر التاريخى لاكتشفنا على الفور أنهم لم يتصوروا أنفسهم أمة واحدة يجمعها تراث تاريخى واحد ، وقد انعكس ذلك على شجرات النسب التى اهتمت بالنسب الجزئى لكل قبيلة على حدة . وإذا كان العرب قد رجعوا فى أصولهم العليا إلى جد أعلى ينتسبون له جميعا ، فإن الأسطورة قد تركت بصماتها على هذه المحاولات من ناحية ، كما أن تراثهم قد خلا من أية مادة تاريخية تكشف عن تصورهم لذات كلية تجمعهم سويا من ناحية أخرى .

لقد افتقرت "أيام العرب" إلى معظم مقومات العلم التاريخى بمفهومنا المعاصر ، بيد أنها كانت نتاجا حقيقيا وإفرازاً للظروف

التاريخية آنذاك ، كما كانت متوافقة مع النظرة القبلية الجزئية التى جعلت من القبيلة عالمًا قائمًا بذاته فى مواجهة القبائل الأخرى[١] . لقد ارتبطت قصص الأيام بفكرة "البطولة" أكثر من ارتباطها بفكرة التاريخ ، ولذلك لم يكن منهج الرواية يسعى للبحث عن الحقيقة التاريخية ، وإنما كان يسعى إلى صياغة الصورة المثالية لبطل القبيلة ، أو أبطالها ، وبالشكل الذى يحقق إشباع مشاعر الفخر ونوازع الكبرياء فى أبناء القبيلة الذين كانت عيونهم وآذانهم تتعلق بالراوى فى سمر الليل بين مضارب خيام القبائل . لقد كانت كل قبيلة تحاول تثبيت ذاتها فى مواجهة القبائل الأخرى .

من ناحية أخرى ، كان الوعى التاريخى لدى عرب الجنوب متوافقا مع ظروفهم التاريخية الموضوعية ودرجة نموهم الحضارى من جهة ، ومختلفا عن الوعى التاريخى لدى عرب الشمال من جهة ثانية .

فقد كانت بلاد اليمن مركز حضارة قديمة استقرت دعائمها أمداً طويلاً ، وحفظت النقوش المعينية والسبئية والحميرية آثارها[٢]، وقد انعكست هذه الحقيقة فى تراث تاريخى اختلف عن تراث تاريخى اختلفت عن تراث عرب الشمال من حيث الشكل والمضمون والهدف أيضا .

---

(١) عفت الشرقاوى ، أدب التاريخ عند العرب ، (القاهرة ١٩٧٦م) ، ج١ ، ص١٤٩-ص١٥٠ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج١ ، ص٨٥-ص١٦٥ .

وكل ما وصلنا فى هذا الصدد تراث تاريخى شفوى تداوله الرواة جيلا بعد جيل . وفى طيات هذا التراث تترد أسماء بعض ملوك اليمن القدماء ، وتظهر أحداث قصص تاريخية غامضة طابعها التهويل والمبالغة تتصاعد منها أصداء أحداث تاريخية توارت خلف ضبابية الغموض[١] وإذا كانت الأحداث التاريخية قد توارت خلف الملامح الغامضة للمبالغة والتهويل فى التراث التاريخى الشفوى لدى عرب الجنوب ، فإن هذه خاصية من خصائص المأثورات الشفاهية تأتيها من خلال تراكم الروايات الشفاهية التى تشبه تراكم الطبقات الجيولوجية فوق الحدث الأصلى ، بيد أن هذا لايحول دون الانتفاع بهذه المادة التاريخية ، ورصدها باعتبارها مرحلة من مراحل تطور الفكر التاريخى ومناهج البحث فى الدراسات التاريخية كذلك [٢] .

وإلى جانب هذا التراث التاريخى الشفوى لدى عرب الجنوب وجد علماء الآثار بعض النقوش التاريخية التى دون فيها الملوك حروبهم وأعمالهم ، وقد دونت على النحاس والحجر . وربما أهلك الزمان تدوينات "تاريخية" أخرى على مواد أقل صلابة وصمودا فتحللت وضاعت عبر القرون . وقد أشار الهمدانى مؤلف كتاب "صفة جزيرة العرب" إلى هذه النصوص التاريخية ، كما أشار إليها نشوان

---

(١) هاملتون جب ، علم التاريخ (كتب دائرة المعارف الإسلامية ، بيروت ١٩٨١) ص٤٧ .

(٢) يان فانسينا ، المأثورات الشفاهية ، ترجمة وتقديم د. أحمد موسى ، (القاهرة ١٩٨١م) ص٨٦–ص٨٨ .

الحميرى الذى ألف معجما لغويا[١] ، وكانت هذه النقوش تتضمن بعض المادة التاريخية المتعلقة بأسماء الآلهة ، أو أنواع القرابين أو أسماء القبائل والأفراد ، كما تضمنت بعض المعلومات عن القوانين التى كانت تحكم علاقات الناس آنذاك [٢] . وفى تصورنا أن هذه النقوش تحمل دلالة لايخطئها الباحث على وجود وعى تاريخى يناسب درجة التطور الحضارى لعرب الجنوب ، إذ إن الشعور بالأهمية التاريخية للإنجازات السياسية والإدارية يدل على وجود نمط مناسب من أنماط الوعى التاريخى بمقاييس تلك العصور .

وفى تقديرنا أن القصص ذات الطابع التاريخى ، التى كان القصاصون الجوالون يروونها عن ملوك العرب الجنوبيين ، وبطولاتهم وأعمالهم ، وهى القصص التى تناقلها الإخباريون فى صدر الإسلام ، تعبر عن مدى وعى عرب الجنوب بفكرة التاريخ . هذه القصص التى كان الخيال يغلفها كانت الأشعار تدخل فى نسيجها بدرجة كبيرة . وكان الرواة يستمدون قصصهم من الأساطير والخرافات التى دخلت ضمن تراث المنطقة تارة ، ومن الأخبار والأحاديث الخرافية المأثورة عن العرب أنفسهم وعمن جاوروهم تارة أخرى[٣] .

---

(١) كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ، ترجمة د. عبد الحليم النجار (طبعة دار المعارف) ج١ ، ص٦٣ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج١ ، ص١٣ .

(٣) اصطلح العرب على تسمية مثل هذه الخرافات باسم (أوابد العرب) . وقد ذكر القلقشندى (صبح الأعشى ، ج١ ، ص٣٩٨) مانصه: "وهى أمور كانت عليها فى الجاهلية ، بعضها يجرى مجرى الديانات ، وبعضها يجرى مجرى الخرافات . وقد جاء الإسلام بإبطالها .

لم تكن هذه القصص تعتمد على توقيت زمنى يربط بينها ، مما يدل على أن الوعى بالزمن باعتباره قاعدة للحدث التاريخى ، كان بعيدا عن هذا النمط من الكتابة "التاريخية" فى تلك العصور[١] ، إذ إن هذه القصص ذات الطابع الملحمى لم تكن تهدف إلى البحث فى المجرى التاريخى العام عن الحقائق التاريخية ، وإنما كانت نوعا من قصص البطولة الملحمية التى تختلط فيها حقائق التاريخ بالخيال المعبر عن رؤية عرب الجنوب ووعيهم بالتاريخ .

ولم يكن هذا النمط من القصص التاريخى يتعلق بالقبيلة ، وإنما بالملكية . وإذا حاولنا استقراء تواريخ الكيانات السياسية التى شهدتها بلاد العرب الجنوبية (أى معين وسبأ وحمير ، ١٣٠٠-٥٢٧ق.م) لأدركنا مدى هامشية الدور الذى لعبته القبيلة فى نشأة هذه الكيانات . فقد كانت الملكية الوراثية هى نظام الحكم السائد ، وشكل النظام السياسى ، ونمط التنظيم الإجتماعى . ومن ناحية أخرى ، فإن تراكم الثروة التى جلبتها تجارة العبور أدت إلى القيام بمشروعات زراعية كبرى مثل سد مأرب . وظلت بلاد العرب الجنوبية تقوم بدورها الهام فى نقل التجارة العالمية طوال عهود معين وقتبان وسبأ وحمير[٢] . وقد أدى هذا الوضع السياسى والاقتصادى فى جنوب شبه الجزيرة العربية إلى وجود وعى تاريخى أكثر شمولا ورحابة من الوعى الجزئى الذى نجم عن الظروف التى فرضتها التقسيمات القبلية الحادة فى نجد والحجاز .

---

(١) قاسم عبده قاسم ، الرؤية الحضارية ، ص٧٦ – ص٧٨ .

(٢) محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامى – محاولة تنظير (الدار البيضاء ، ١٩٨٠م) ، ج١ ، ص٣٧ – ص٤٠ .

لقد عرف الجنوب نظما سياسية واجتماعية متقدمة نسبيا عن تلك التى عرفها عرب الشمال ، كما أنهم خضعوا لنمط من الحكم الملكى فترة طويلة من تاريخهم ، ومن ثم اتخذت الكتابة التاريخية أشكالا تناسب الظروف الموضوعية ، فاهتمت الروايات التاريخية بقصص الملوك وبطولاتهم وحروبهم . وهو أمر طبيعى فى زمن كان فيه التاريخ ربيب القصور الحاكمة . كما نجد فى صفحات الكتب التاريخية اليمنية تداخلا بين الدين والسياسة . ومن ناحية أخرى ، فإن وعى الجنوب بفكرة التاريخ لم ينحصر فى إطار البيئة اليمنية فحسب ، وإنما تعداها إلى آفاق العالم الخارجى وهو مايعنى أن دور عرب الجنوب فى التجارة العالمية آنذاك كانت له انعكاساته على الفكر التاريخى . وتتأكد هذه الحقيقة من خلال مابقى لنا من تراث عرب الجنوب فى مجال الكتابة التاريخية مثل كتاب "التيجان فى ملوك حمير"[١] .

ويبدو منهج البحث التاريخى متعثرا فى خطواته الأولى فى هذا الكتاب إذ تختلط فيه الحقيقة التاريخية بالخرافة والأسطورة على نحو مربك ومحير . ويبدأ هذا الكتاب بالحديث عن الخلق ويتناول بداية الصراع الإنسانى حين قتل قابيل أخاه هابيل[٢] . ثم يشرع بعد ذلك فى الحديث عن نسب حام بن نوح ونسله ، إلى أن ينتقل إلى الحديث عن ملوك حمير[٣] ، فيخلط التاريخ بالأسطورة حين يقول : "وولى حمير بن سبأ ، فجمع الجيوش ، وسار يطأ الأمم ويدوس الأرضين ، وأمعن فى

---

(١) قام مركز الدراسات والأبحاث اليمنية فى صنعاء بنشر هذا الكتاب سنة ١٣٤٧هـ .

(٢) التيجان ، ص٩ - ص٢٢ .

(٣) نفسه ، ص٦٠ - ص٦٤ .

المشرق حتى أبعد يأجوج إلى مطلع الشمس" ثم يمضى فى حكاياته التى تجمع بين التاريخ والخيال حتى يصل إلى سيف بن ذى يزن[١] . ويتأكد هذا الاتجاه من خلال الأخبار التاريخية التى تحوى قصص عرب الجنوب ، وقد نشرت هذه الأخبار تحت عنوان "أخبار عبيد بن شرية الجرهمى فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها على الوفاء والكمال"[٢] .

وقد ظل هذا التراث "التاريخى" لعرب الجنوب على ألسنة الرواة الذين تناقلوه عن طريق الرواية الشفوية على مدى عدة أجيال . وبحكم طبيعة المأثورات الشفاهية تألفت الأخبار التاريخية التى اختلطت بالخيال، والتى زعم رواتها أنها تاريخ واف لبلاد العرب فى العصور القديمة ، واقترنت بهذه الأخبار التى جمعت بين الخيال والتاريخ أسماء رجال من طراز "وهب بن منبه" ، "وعبيد بن شرية" . ويرى أحد المستشرقين أن هذا التراث دليل دافغ "على أن العرب الأقدمين كانت تنقصهم الملكة التاريخية والنفوذ إلى الحقائق ، حتى فى أخص مايتعلق بحوادث عصرهم"[٣] .

وفى رأينا أن (السير هاملتون جب) يقسو فى تقويم هذا النمط من أنماط الكتابة التاريخية بمقاييس البحث التاريخى الحديث ومناهجه . ففى هذه المرحلة من التطور الحضارى لعرب الجنوب كان هدف "التاريخ" إبراز البطولة على حساب التاريخ كما سبق القول . وقد أثر هذا الاتجاه

(١) نفسه ، ص٣١٧ - ص٣٢١ .

(٢) تم نشر هذا الكتاب ضمن كتاب التيجان (ص ٣٢٥ - ص٤٠٥) ، وهو على شكل حوار بين الخليفة الأموى (معاوية بن أبى سفيان) ، (وعبيد بن شرية) .

(٣) جب ، علم التاريخ ، ص٤٧ - ص٤٨ .

على منهج الرواة الذين كانوا يسعون لتجسيد بطولة ملوك اليمن القدماء ومآثرهم بالشكل الذى يلقى استجابة عاطفية قوية ممن يستمعون إلى رواياتهم . والكلام عن "منهج بحث" أو "دراسة تاريخية" فى هذه الظروف يعتبر نوعا من الأخطاء المنهجية التى تتجاهل الحقيقة القائلة بأن "العلم" و"مناهج البحث" فى هذا العلم تربطها علاقة جدلية تجعل من العبث الحديث عن مناهج بحث فى وقت كان موضوع التاريخ مايزال غير قادر عن الفكاك من أسر الخرافة والأسطورة والخيال . وإذا ماتذكرنا ، مرة أخرى ، أن المنهج هو العمليات العقلية والاستدلالية التى تساهم فى حل مشكلات العلم ، وتدخل فى بنية العلم أيضا ، لوجدنا أن رواة هذا النمط من "التاريخ" كانت تحكمهم أغراض أخرى غير "البحث" عن الحقيقة التاريخية ، وهى ذات الأغراض التى تحكم رواة فنون الأدب الشعبى .

وعلى أية حال ، فإن التراث التاريخى يكشف عن توظيف المعرفة التاريخية فى خدمة أهداف ثقافية / اجتماعية . كذلك لم يكن التاريخ بالنسبة للعرب قبل الإسلام بحثا عن الحقيقة ، كما أنهم لم يروا فى العملية التاريخية نتاجًا لتفاعل الإنسان مع بيئته فى إطار زمنى محدد ، وكان هذا فى الواقع تعبيرا عن مرحلة من مراحل التطور الحضارى . وقد افتقر التراث التاريخى العربى إلى الوعى المزدوج بالزمن والحقيقة . وكانت تسجيلاتهم التاريخية الباكرة سنداً وعونًا للعرب فى مواجهة ضرورات الظروف التى حكمت الحياة العربية على المستوى الاجتماعى والاقتصادى والسياسى . ومن هنا كان منهج الكتابة التاريخية محكومًا بهذه المعوقات التى دخلت فى بنية "العلم التاريخى" فى ذلك الدور الباكر من تاريخه ، كما كان محكوما "بموضوع التاريخ" ، والهدف من الكتابة ، أو الرواية التاريخية .

-٥-

بعد ظهور الإسلام حدثت تغييرات جوهرية فى حياة العرب ، وانعكست هذه التغيرات على شتى نواحى الحياة . وكان لابد لفكرة التاريخ أن تخضع لهذه التطورات ، فقد كانت الأفكار القرآنية عن التاريخ بؤرة التطور الذى شهده علم التاريخ من ناحية ، كما كانت الظروف الموضوعية والتطورات السياسية والإجتماعية والسياسية والثقافية حافزا لهذا التطور وموجهًا له من ناحية أخرى ، وقد أدى هذا، بطبيعة الحال ، إلى نقلة نوعية هامة وحاسمة فى مناهج الدراسات التاريخية ، وبنية علم التاريخ نفسه . ويمكن رصد هذه المعطيات الجديدة، التى أثرت على الفكر التاريخى ومناهج البحث فى موضوعاته، على مستويين :

أولهما : المستوى الفكرى المتصل بالعقيدة نفسها :

ثانيهما : المستوى الواقعى المتمثل فى الظروف التاريخيةالجديدة التى فرضت نفسها فى ظل تطور الحضارة العربية الإسلامية بمراحلها المختلفة .

وفكرة التاريخ فى القرآن الكريم ، على نحو ماتوضحه آيات القرآن الكريم ذات المضمون التاريخى ، تجسيد للتصور الإسلامى لرسالة الإنسان فى الحياة . فالإنسان ، حسب المفهوم الإسلامى ، خليفة الله فى الأرض ، وقد تحمل أمانة إعمار هذه الأرض وبناء الحضارة ونشر الحق

والعدل فى ربوعها وفق سنة الله [١] . ولكى يستطيع الإنسان أن يقوم بدوره هذا ينبغى أن يتعرف على ذاته حتى ينجح فى أداء رسالته . وقد دعا القرآن الكريم المسلمين إلى التعرف على ذاتهم الحضارية فى قوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور﴾[٢] هذه الدعوة إلى معرفة الذات يمكن للإنسان أن يحققها من خلال رصد الماضى الحضارى للبشر ، وتأمل هذا الماضى والنظر فيه بغرض معرفة سنة الله فى خلقه .

وهنا نلاحظ أن فكرة التاريخ فى القرآن الكريم تقوم على أساس أن التارخ فعل إنسانى فى التحليل الأخير فالفعل التاريخى نتاج لتفاعل الإنسان مع بيئته فى إطار الزمان ، وهو أيضا خير وسيلة لكشف ماهية الإنسان . ولذلك نجد المادة التاريخية فى القرآن الكريم تحكى قصة الأقوام والحضارات التى شهدتها مسيرة البشر عبر الزمان ، مثل قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط ومدين وغيرهم .[٣]

بيد أن هذه القصص التاريخية الواردة فى ثنايا آيات القرآن الكريم ليست هدفا فى حد ذاتها ، وإنما تهدف إلى "إثارة الفكر البشرى ودفعه

---

(١) قاسم عبده قاسم ، الرؤية الحضارية ، ص٥٥ - ص٥٧ . حيث ترد مناقشة تفصيلية لفكرة مسئولية الإنسان فى الأرض كما حددها القرآن الكريم .

(٢) سورة الحج : آية ٤٦ .

(٣) انظر على سبيل المثال : سورة الأعراف ، وسورة هود ، وسورة الأنبياء ، وسورة المؤمنون وسورة الشعراء ، وسورة القصص .

إلى التساؤل والبحث عن الحق باستمرار" على حد تعبير أحد الباحثين.[١] وقد أدى هذا إلى تطور هام فى مناهج البحث التاريخى، إذ نزل التاريخ إلى عالم الواقع ، وراح المؤرخون يبحثون فى قصة الإنسان على الأرض . أى أن البحث التاريخى اهتم بالأحداث "التاريخية" التى صنعها البشر فى بيئتهم ، وداخل إطار زمانهم . وبدأ البحث التاريخى ينشد الحقيقة التاريخية باعتبار أن التاريخ أحداث وضعية من صنع البشر وهم مسئولون عنها . وبدأ علم التاريخ خطواته العلمية الأولى فى تراث الثقافة العربية الإسلامية باستعارة مناهج علم الحديث باعتبارها وسيلة لضبط الرواية التاريخية وفق مقياس أخلاقى يستند إلى "الجرح والتعديل" الذى كان منهجًا يستند إلى الجدارة الأخلاقية للرواة. إذ إن منهج الإسناد والعنعنة الذى ميز الدراسات التاريخية الأولى كان يستند إلى البحث عن الحقيقة من خلال الرواة الثقاة الذين لايرقى الشك إلى صدقهم وجدارتهم الأخلاقية. وعلى الرغم من ذلك فإن مناهج البحث كان عليها أن تنتظر طويلاً حتى تأخذ شكلها العلمى الذى بلوره ابن خلدون فى مقدمته الشهيرة .

ويطرح القرآن الكريم من خلال المادة التاريخية التى تتضمنها الآيات الكريمة ، النتائج التى يمكن الخروج بها من دراسة التاريخ الإنسانى وإمعان النظر فى وقائعه والتأمل فى أحداثه . والهدف هنا عملى علمى وتربوى أيضا . فالقرآن الكريم يصور فى وضوح شديد أن ثمة قوة فى الحق . وأن الفشل يحيق بالباطل فى النهاية . فما يناله الإنسان ، فرداً وجماعة ، يكون نتيجة طبيعية للدور التاريخى الذى مارسه. ومن ناحية

---

(١) عماد الدين خليل ، التفسير الإسلامى للتاريخ (بيروت ١٩٧٥م) ، ص١٠٦ .

أخرى ، يوضح القرآن الكريم أن التغير التاريخى لايحدث فجأة ، إذ يحدث تراكم بطيء عبر الزمان للأسباب التى ينتج عنها تغير تاريخى كبير بعد فترة زمانية طويلة(١) .

وهنا نلاحظ أن التاريخ لايجرى اعتباطا ، كما أن حركة تطوره ليست حركة عشوائية ، وإنما هى محكومة بسنن وقوانين منذ بداية الخلق وحتى يوم القيامة(٢) . ومع هذا فإن هذه السنن والقوانين لاتمنع الإنسان من دوره التاريخى ، وإنما تجعله مسئولاً عن نتائج الفعل التاريخى لأن الله ميزه بالعقل والحرية.

فالمادة التاريخية الواردة فى القرآن الكريم تقوم على أساس أن للتاريخ معنى أخلاقيًا وروحيًا محوره دور الإنسان باعتباره خليفة الله فى الأرض ، وبوصفة مسئولا عن تعمير العالم وإقامة الحق فى ربوعه. وفى هذا الصدد نجد آيات كثيرة تبرز اتجاها يؤكد أن التاريخ مستودع للعظات والعبر التى يجب على الإنسان أن يتلمسها فى أخبار الأمم الماضية . ومن أمثلة السور القرآنية التى تضمنت مادة تتعلق بتواريخ الأمم الماضية : هود والأعراف والأنبياء والمؤمنون والشعراء والقصص . وثمة حقيقة يؤكدها القرآن الكريم مؤداها أن الفعل الإنسانى

---

(١) Mozheruddin Siddiqi, the Quranic Concept of History, (Karachi, 1965). p. 10.

أنظر أيضا : عماد الدين خليل ، التفسير الإسلامى ، ص١٠٨ – ص١٠٩؛ قاسم عبده قاسم ، الرؤية الحضارية ، ص٨١-ص٨٣ .

(٢) محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامى ، ج١ ، ص ٢٣٩-ص٢٤٠ .

فى التاريخ سبب له نتائجه التى يتحدد بها مصير البشرية . وبعبارة أخرى، فإن الإنسان هو صانع التاريخ .(١)

هكذا إذن ، تحددت أبعاد فكرة التاريخ فى القرآن الكريم على أساس من المفاهيم القرآنية . وكان لهذا انعكاسه الإيجابى على تطور مناهج البحث التاريخى وتقدمها نحو البحث فى السببية على أسس وضعية وإنسانية . فقد استخدم القرآن الكريم المادة التاريخية لتأكيد مسئولية الإنسان عن مصيره فى الحياة الدنيا ، وحرصت الآيات على تأكيد هذه المسئولية من خلال العبرة والعظة . ولا غرو أن نظرة المسلمين إلى التاريخ لم تخل من الجانب الأخلاقى المتصل بالعقيدة فى أساسه . وقد فرضت هذه الرؤية التربوية التعليمية للتاريخ نفسها على المؤرخين المسلمين ، وقد أوردوا فى مقدمات كتبهم مايشى بأنهم عملوا فى إطارها . كذلك فإن سطور كتبهم حفلت بالشواهد والأدلة عليها .

ولما كانت الخلفية الثقافية للمؤرخين المسلمين قائمة بالضرورة على أساس من المفهوم القرآنى فقد كان طبيعيا أن ينبع فهمهم للجدوى الأخلاقية / التعليمية للتاريخ من هذه الخلفية . وقد جسد ابن خلدون هذه الرؤية بقوله : "اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية ، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم ، والأنبياء فى سيرهم ، والملوك فى دولهم وسياستهم ، حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدنيا والدين"(٢) . ويؤكد

---

(١) قاسم عبده قاسم، الرؤية الحضارية ، ص٥٥ – ص٥٧ ؛ عفت الشرقاوى، أدب التاريخ ، ج١ ، ص٢١٠–ص٢١٢ .

(٢) مقدمة ابن خلدون (طبعة كتاب التحرير، القاهرة ١٩٦٦م) ، ص١٤ .

شمس الدين السخاوى[١] هذا المعنى فى كتابة الذى ألفه دفاعًا عن التاريخ .

وعلى أية حال ، فإن المؤرخين المسلمين ظلوا متأثرين بالرؤية القرآنية لدور التاريخ فى خدمة الجانب الأخلاقى التعليمى فى المجتمع المسلم ، بل إن منهم من قسم (فوائد التاريخ) إلى قسم دنيوى وقسم أخروى ، بيد أن هذا التقسيم لم يخرج عن نطاق العظة والعبرة والمعنى الأخلاقى والمغزى التربوى ، مما يجعل الحياة ناجحة فى الدنيا ، ويضمن المصير فى الآخرة .[٢]

هذا هو تأثير الجانب العقيدى على فكرة التاريخ فى تراث الحضارة العربية الإسلامية ، وهو تصور ركز على مسئولية الإنسان فى الفعل التاريخى من ناحية . كما ترك بصماته الواضحة على التطور الإيجابى فى مناهج البحث التاريخى من ناحية أخرى . لقد أصبح التاريخ ، بأحداثه وأشخاصه ، من شئون البشر واختفى تدخل الآلهة فى مجرى العملية التاريخية لصالح القبائل والشعوب ، كما تخلص التاريخ من شباك الأسطورة إلى حد كبير . وكانت النتيجة الطبيعية أن التزمت الرواية التاريخية بإطار الزمان وحدود المكان ، كما بحث المؤرخون عن الحقيقة وفاضلوا بين رواية وأخرى . ومنذ البداية تأثرت مناهج

---

(١) السخاوى ، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (تحقيق فرانز روزنتال وترجمة أحمد صالح العلى ، بغداد ١٩٦٣م) ، ص٣٦-ص٣٨ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ (دار صادر ، بيروت) ج١ ، ص٦ - ص٩ ويرى ابن الأثير أن القصص وردت فى القرآن الكريم لهذه الحكمة .

البحث التاريخي بمناهج علم الحديث في إسناد الرواية التاريخية ، ثم نقدها على أساس التاريخ الشخصي للراوي . ولم يلبث هذا المنهج أن أثبت عدم جدواه ، وبدأ منهج جديد يجمع بين الاعتماد على الجدارة الأخلاقية للرواة، ونقد نص الحديث نفسه من ناحية أخرى.

ومن ناحية أخرى ، فرضت التطورات التاريخية التي لحقت بدار الإسلام استخدامات جديدة لعلم التاريخ في خدمة الحضارة العربية الإسلامية . وإذا كان تأثير الجانب العقيدي قد اتضح في صياغة فكرة التاريخ ، فإن تأثير هذه التطورات التاريخية يمكن رصده من خلال أنماط الكتابة التاريخية التي عرفها تراث الثقافة العربية الإسلامية . ومن الطبيعي أن ينعكس ذلك أيضا على مناهج الدراسات التاريخية بحيث تبلورت في نهاية الأمر في ذلك المستوى الراقي لمنهج البحث التاريخي الذي أوضحه "ابن خلدون" في مقدمته الشهيرة .

بيد أننا يجب أن ندرك أن تطور أنماط الكتابة التاريخية في التراث العربي الإسلامي كان يسير في خط مواز للتطور الذي ألم بدار الإسلام خلال مراحل نموها الحضاري . ومثلما كان لفكرة التاريخ في القرآن الكريم أثرها في صياغة الفكر التاريخي على الصعيد النظري ، كان للرغبة في تفسير آيات القرآن الكريم أثرها على الأشكال الأولية من أنماط الكتابة التاريخية . لقد كان أول تطور في الدراسات التاريخية تلبية لضرورة ثقافية / اجتماعية ملحة في حياة المجتمع المسلم هي تفسير القرآن الكريم . وفي رأينا أن التفسير يعد ضربًا من ضروب البحث التاريخي .

وهنا نجد الخطوات الأولى لمناهج البحث التاريخي تتعثر بين الرغبة في معرفة الحقيقة والنقص الحاد في المعارف والمعلومات التي توصل إلى

معرفة هذه الحقيقة . وربما كان هذا هو السبب فى أن رجلين مثل "كعب الأحبار" (ت ٥٣٤) "ووهب بن منبه" (ت١١٠هـ؟) قد استكملا هذا النقص بروايات خيالية من التراث العبرانى والمسيحى . وقد ظلت رواياتهما مصدراً مشتركًا لكتب التفسير طوال عصور الثقافة العربية الإسلامية[١] .

واللافت للنظر أن مناهج الجرح والتعديل فى الحديث كانت تستهدف الحقيقة من خلال ضوابط نقدية صارمة . وقد كانت هذه المناهج من أهم روافد البحث التاريخى عند المسلمين فقد كان الرسول (عليه الصلاة والسلام) شخصية تاريخية عاش فى فترة تاريخية معلومة بحدود الزمان والمكان، كما أنه مارس أفعالا تاريخية تركت أثرها فى تاريخ العالم ، كما كانت أحاديثه موجهة إلى الناس ، وتناقلها بالرواية عدة رواة يحتمل فيهم الصدق كما يحتمل الكذب . ومن ثم بدأ علم الحديث يستخدم منهجه النقدى فى البحث عن الحقيقة التاريخية على أساس أخلاقى وشخصى . وكانت تلك مرحلة هامة من مراحل تطور مناهج البحث فى الدراسات التاريخية . لقد نبذت فكرة الركون إلى دور القوى الغيبية فى صنع تاريخ البشر ، وتم التأكيد على مسئولية الإنسان عن صنع تاريخه وبناء حضارته . بيد أن هذا لايعنى من ناحية أخرى ، انعدام العنصر الغيبى والأسطورى فى الكتابة التاريخية ، فالواقع أن تطور المناهج الجديدة فى الدراسات التاريخية قد دفع بالكتابة التاريخية إلى الأمام ، ولكن الأساليب القديمة كانت ماتزال موجودة . ومن المهم أن

---

(١) حسين نصار ، نشأة الكتابة التاريخية فى الأدب العربى (ط . ثانية ، القاهرة ، ١٩٦٦م) ص١٧٥- ص١٧٧ .

نلاحظ أن هذه سمة من سمات تطور مناهج البحث فى الدراسات التاريخية (وفى غيرها من العلوم) إذ أن تطور مناهج البحث يدخل فى الخط العام لتطور العلم نفسه ، ولكنه لايقضى على الأساليب والنماذج والمناهج القديمة التى تظل موجودة ، جنبًا إلى جنب ، مع المناهج الجديدة فترة من الزمان .

ومن ناحية أخرى ، كان للاهتمام بالأحاديث النبوية أثره فى ظهور نمط آخر من أنماط الكتابة التاريخية هو "السيرة والمغازى" التى كانت استجابة لحاجة ثقافية / اجتماعية فى المجتمع المسلم الذى أراد أفراده الوقوف على تفاصيل حياة الرسول (ص) وأفعاله التاريخية . وتنقلنا "المغازى" للمرة الأولى إلى الكتابة التاريخية بالمفهوم الحديث لأنها كانت تبحث فى سيرة الرسول (ص) وغزواته وسراياه ، وتجمع فى الوقت نفسه أخبار الأحداث التاريخية الأولى التى واكبت قيام الأمة الإسلامية مثل الهجرة إلى الحبشة والمدينة ، ورسائل النبى (ص) إلى الحكام المعاصرين ، وهذه كلها أخبار "تاريخية" اتخذت هذا النمط استجابة لحاجة المسلمين إلى معرفة أخبار الفترة التاريخية التى وُضعت فيها اللبنة الأولى فى حضارتهم ، والتى شهدت انتشار الإسلام أيضا .

وكان لابد من تغيير فى منهج البحث والرواية لكى يناسب هذا التطور الجدي فى ميدان الكتابة التاريخية ، وبذلك خطت الكتابة التاريخية خطوة أبعد من منهج علم الحديث فى ضبط الرواية .

والواقع أن اعتناق العرب للإسلام لم يجعلهم يتخلون عن تراثهم فى مجال المعرفة التاريخية قبل الإسلام ، إذ إنهم احتفظوا بالأيام والأنساب، وقصص عرب الجنوب ولكنهم طوعوها فى خدمة الأغراض الثقافية / الاجتماعية التى وجدت بعد الإسلام . ويمكن القول إن فكرة

التاريخ قبل الإسلام قد اتخذت مفهوما مغايرا بسبب التطورات التى جدت على مناهج البحث وبنية العلم التاريخى نفسه بعد ظهور الإسلام[١] وقد زاد نشاط علماء الأنساب فى عهد "بنى أمية" بسبب إنشاء الدواوين ، وبسبب مصالح العصبيات من العرب المتنافسين[٢]، كذلك ينبغى أن نلاحظ أن العرب ، بعد الإسلام ، ظلوا يحتفظون بالتنظيم القبلى أساسًا للتنظيم الاجتماعى على الرغم من خضوعهم لسلطة عامة ، وقد أدت هذه الظروف إلى إزدهار علم الأنساب بعد الإسلام [٣] . بيد أن الهدف من هذا النمط من المعرفة التاريخية لم يظل كما كان فى الجاهلية ، وهو ما أدى إلى تغير جوهرى فى منهج النسابين الذين اهتموا برسم شجرات النسب ، بصورة جافة ، تخدم غاية أساسية هى تأكيد الأنساب .

على أية حال ، فإن موضوعات التاريخ فى تلك المرحلة من تاريخ الثقافة العربية الإسلامية كانت تعالج أحداثا دنيوية بحتة ، فسيرة النبى (عليه الصلاة والسلام) ومغازيه ليست سوى أحداث تاريخية جرت على أرض معروفة بحدودها الجغرافية فى فترة تاريخية محدودة بحدود

---

(١) حسين نصار، المرجع السابق ، ص٢٢٢- ص٢٢٤ ، محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامى ، ج١ ، ص٢٤٧ .

(٢) جب ، علم التاريخ ، ص٥٠ .

(٣) ازدهر علم الأنساب بعد الإسلام ولمعت أسماء كثيرين من النسابة فى العصر الأموى الذى شهد تميز العرب على غيرهم من المسلمين : انظر : ابن قتيبة ، المعارف ، ص٥٣٤ - ص٥٣٦ ؛ بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ، ج١ ص٢٥٣ .

الزمان . وإذا كانت موضوعات "التاريخ" قد اختلطت بغيرها من الموضوعات ، مثل الفقه والحديث ، فالثابت أن جهود المحدثين والفقهاء كانت موجهة لحل مشكلات دنيوية على الصعيد الاجتماعى والاقتصادي والسياسى . بل إن فكرة التاريخ فى القرآن الكريم كانت تدور حول هدف دنيوى عملى هو تربية المسلمين وتعليمهم من خلال دروس التاريخ وماتحمله من عظة وعبرة .

والنتيجة الطبيعية لهذه البداية "التاريخية" لعلم "التاريخ" فى تراث الثقافة العربية الإسلامية أن تتأثر مناهج البحث بموضوع الدراسة التاريخية وهدفها . ولأن الدراسات التاريخية عند المسلمين بدأت من أرضية إنسانية وضعية ترى أن الإنسان هو صانع التاريخ ، والمسئول عن قيام الحضارة أو سقوطها ، فإن مناهج البحث صارت هى الأخرى تستهدف الحقيقة وتبحث عن العلاقة السببية فى الحوادث التاريخية . وإذا كانت فكرة العناية الإلهية بشئون البشر موجودة فى تراث الثقافة العربية الإسلامية ، بشكل عام ، فالواضح فى تراث الكتابة التاريخية أن العناية الإلهية لاتؤازر المسلمين لمجرد أنهم مسلمون ، ولكنها تؤازرهم إذا كان "فعلهم التاريخى" فى الدنيا قويمًا متوافقًا مع أوامر الله ، وإذا تنكبوا سواء السبيل حاق بهم البوار والخسران . ويعنى هذا ، فى التحليل الأخير ، أن الإنسان مسئول عن فعاله فى الدنيا . ولقد كانت هذه النظرة ذات تأثير عميق على رؤية التاريخ باعتباره تجربة إنسانية ، مما أثر بدوره على مناهج البحث التاريخى التى اهتمت بالأسباب الوضعية المفسرة للظاهرة التاريخية .

ومن ناحية أخرى ، كانت للتطورات التى شهدتها الفترة الباكرة من تاريخ المسلمين ، سياسيًا وعسكريًا واقتصاديًا، تأثيراتها الفكرية والإجتماعية بعيدة المدى . إذ استمرت حركة الفتوح الإسلامية فى عنفوانها حوالى قرن من الزمان ، ونتج عنها أن دخلت تحت راية الإسلام شعوب عريقة ذات أصول حضارية بعيدة . وبطبيعة الحال أدت هذه التطورات إلى نشوء الحاجة إلى أنماط جديدة للكتابة التاريخية . وهو الأمر الذى أدى بدوره إلى تطور مناهج البحث وفق الأنماط العديدة التى أفرزها تطور علم التاريخ فى الثقافة العربية الإسلامية .

فقد أوجدت حركة الفتوح الإسلامية نمطًا من الكتابة التاريخية يهتم بفتوح البلدان بقصد التعرف على ظروف فتح كل بلد ، وكان هناك عدد الأخباريين فى كل بلد تخصصوا فى جمع أخبار هذا البلد ، والروايات المتعلقة بظروف فتحه ، وتدوينها . وكان منهج أولئك الإخباريين بسيطًا يقوم على أساس الروايات المختلفة حول الحادثة التاريخية الواحدة دون محاولة للتحقيق أو التدقيق . ولأن عدداً من هذه الروايات كانت محلاً للتداول الشفهى حتى القرن الهجرى الثالث على الأقل ، فإن كتب الفتوح تحمل مشكلات كثيرة حول التواريخ والأحداث والأشخاص المشاركين فيها تحير الباحثين حتى اليوم . وكان العيب المنهجى الناجم عن جمع الروايات دون تحقيقها سمة مشتركة بين كثير من هذه الروايات التاريخية حول فتوح البلدان .

كذلك أدى دخول الشعوب ذات الحضارات القديمة فى الدين الإسلامى إلى تطور آخر فى علم التاريخ ومناهج البحث فيه ، إذ نشأت الحاجة

إلى معرفة تواريخ هذه الشعوب قبل الإسلام مما أدى إلى بروز مجال جديد للكتابة التاريخية . وكانت تلك هى المرحلة التى مهدت لظهور التواريخ المحلية . إذ إن التنافس الثقافى بين الشعوب الإسلامية ، فى إطار الثقافة العربية الإسلامية ككل، خلق الحاجة إلى قراءة جديدة لتواريخ تلك الشعوب تؤكد هويتها الحضارية ، ودورها فى مسيرة الإنسانية عبر عصور التاريخ. ويمكن أن نشير إلى عدد ممن تخصصوا فى هذه الأخبار التاريخية التى تتناول الفترة السابقة على الإسلام ، مثل "محمد بن السائب الكلبى" و"عوانة بن الحكم" (ت١٤٧هـ) و"أبو مخنف الأزدى" (ت١٥٧هـ) . و"سيف بن عمر" (ت ١٧٠هـ) وغيرهم . بيد أن أهم هؤلاء جميعا هو "محمد بن عمر الواقدى" (ت٢٠٧هـ) الذى كانت كتبه عنوانا على تقدم واضح فى مناهج البحث التاريخى [١] .

ومع بداية القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) كان فى متناول المؤرخين المسلمين كم هائل من المادة التاريخية التى خلفها لهم كتاب السيرة النبوية والمغازى ، ومؤلفو كتب الطبقات وكتب الفتوحات . كذلك ساعدت الظروف التاريخية على ازدهار المعرفة التاريخية ، وتعدد أنماط الكتابة ، فضلا عن تطور مناهج البحث . ففى سنة (١٧٨هـ) تم فى بغداد تأسيس أول مصنع للورق الذى حل بالتدريج محل الرق والبردى وغيرهما من مواد الكتابة المعروفة آنذاك . ومن ناحية أخرى كانت دواوين الدولة تحفل بالوثائق والسجلات التى بدأت تدخل ضمن

---

(١) العبادى ، علم التاريخ عند العرب ، ص٥١ ومابعدها . وقد ألف الواقدى كتابا فى التاريخ العام حاول فيه أن يتتبع تاريخ البشرية منذ البداية حتى عصر الخليفة العباسى هارون الرشيد ، ولكن الكتاب مفقود سوى الأجزاء التى نقلها (ابن سعد) منه فى كتاب (الطبقات الكبرى) .

نسيج المادة التاريخية [١] ، فضلا عن أن بعض الخلفاء الأوائل كانوا يرون فى التاريخ نوعًا من الثقافة السياسية فقد كان "معاوية بن أبي سفيان" يخصص شطراً من الليل للاستماع إلى قصص التاريخ التى تتناول أخبار الملوك والحروب والمكائد السياسية . ومن نتاج هذه المجالس ظهرت الروايات التاريخية المنسوبة إلى "عبيد بن شرية" . [٢]

لقد تضافرت عوامل كثيرة لتمهد الطريق أمام التطور الهام الذى لحق بعلم التاريخ عند المسلمين منذ القرن الثالث الهجري فصاعداً . وجاء ظهور الأنماط المختلفة من الكتابة التاريخية ظهوراً طبيعيًا . ويمثل القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) مرحلة تطور هامة وحاسمة فى تاريخ الثقافة العربية الإسلامية . وظهرت المدارس الفكرية المختلفة فى شتى أنحاء دار الإسلام . وتمثل الازدهار العلمى والفكرى فى مظهرين رئيسين: السفر والرحلة فى طلب العلم بين مختلف أنحاء العالم الإسلامى ، وتعدد المؤلفات التى كتبت فى شتى فروع العلم والمعرفة . كذلك فإن السلام الذى تحقق فى ظل وحدة دار الإسلام خلق جواً من الاستقرار انعكس على الروح الإبداعية فى الحضارة العربية الإسلامية . وكان لابد أن ينال علم التاريخ نصيبه من هذا الازدهار .

فقد أدى ذلك بالضرورة إلى تراكم هائل ، على المستوى النوعى والكمى ، فى مجال الكتابة التاريخية التى شهدت مرحلة انتقال

---

(١) قاسم عبده قاسم ، الرؤية الحضارية ، ص٩٨ – ص٩٩ .

(٢) يقال إن (عبيد بن شرية) قد روى أخبار ملوك العرب من لخم وغسان ، وقد روى أيامهم ، ووفد على معاوية ليروى له هذه الأخبار – أنظر عبيد بن شرية ، أخبار اليمن وأشعارها ، ص٣٢٣ – ص٥٠٤ ، بروكلمان تاريخ الأدب العربى ج١ ، ص٢٥٠ .

منهجية هامة ، نقلت كتابة التاريخ من مجرد التجميع والتأليف والوصف إلى مرحلة جديدة قوامها منهج صارم يقوم على أساس ضبط الرواية وتحقيقها . فقد شهد القرن الثالث الهجرى مولد كثير من الحوليات والمؤلفات التاريخية ، فضلا عن ذلك الكم الهائل من المعلومات التى كان الإخباريون مايزالون يتداولونها بالرواية الشفوية . ولمعت أسماء عدد من أعلام التدوين التاريخى ، منهم "أبو قتيبة الدينورى" (ت٢٧٦هـ) ، و"ابن جرير الطبرى" (ت٣١٠هـ) ويعتبر كتاب الطبرى "تاريخ الرسل والملوك" تجسيداً للنزعة التاريخية العامة التى خلقتها وحدة العالم الإسلامى ، إذ يتناول هذا الكتاب التاريخ العام منذ الخليقة حتى نهاية سنة ٣٠٢ هجرية ، ويخصص مساحة كبيرة للسيرة النبوية ، إلى جانب حوادث صدر الإسلام ، ثم يرتب الأحداث التاريخية سنة وراء الأخرى .

ويعد "الطبرى" رمزاً لختام مرحلة وبداية مرحلة جديدة فى تاريخ التدوين التاريخى فى التراث العربى الإسلامى . ففى هذا الكتاب قام الطبرى بصياغة تركيبية لكل الأنماط السابقة فى مجال التدوين العربى، مثل بداية الخليقة وأيام العرب ، والمغازى ، والسيرة النبوية ، والفتوح ، ثم النمط الحولى الذى ينسب إليه . أما من ناحية المنهج ، فقد اعتمد على منهج الإسناد إلى جانب الوثائق التى بدأ يدخلها فى نسيج الرواية التاريخية على نحو لم يكن مألوفا قبل الطبرى .

وفى كتاب "تاريخ الرسل والملوك" أرسى الطبرى قواعد منهج جديد فى البحث والدراسة التاريخية كان يمثل نقلة نوعية فى تاريخ الكتابة العربية لم تتكرر بعد ذلك سوى فى كتابات عبد الرحمن بن خلدون .

ولم يكن ما جاء به الطبرى "ابتكاراً" خالصا . وإنما كان صياغة موحدة لكل التطورات والأنماط والمناهج التى حاولها مؤرخون قبله . وجاءت كتابات الطبرى حصاداً ناجحًا لكل محاولات من سبقوه . ويرى البعض أن سبب أهمية كتابة يكمن فى أنه كان مثالا للصرامة والدقة المنهجية ، إذ طبق الطبرى فى هذا الكتاب منهج الإسناد تطبيقا صارمًا فى مجال التاريخ . ولكى يحدث ذلك كان لابد له أن يصوغ كتابه على أساس الخبر من ناحية ، وعلى أساس من الجدارة الأخلاقية لمن نقل الخبر من ناحية أخرى . وقد كان من الضرورى أن يرتب الطبرى كتابه ترتيبًا زمنيًا على مر السنين [1] ، فقد اتبع طريقة الحوليات ، وقسم حوادث كتابه وفقًا لتسلسل زمني يبدأ من سنة الهجرة . وقد نهج نهجًا تتابعيًا بحيث يروى حوادث كل سنة على حدة متبعًا منهج لإسناد والعنعنة . [2]

بيد أن الطبرى لم يقتصر على منهج الإسناد الذى طبقه على روايات كتابه بصرامة فحسب ، وإنما نجد فى طيات كتابه الضخم مايشير إلى هذه النقلة النوعية التى أشرنا إليها فى منهج البحث التاريخى . إذ تبرز أهمية الوثائق والسجلات الحكومية باعتبارها دليلا يدعم القصة التاريخية وهو تطور اهتم بالدليل الوثائقى فى الدراسة التاريخية مايزال يحظى بالاحترام البالغ بين المؤرخين حتى اليوم . ويعنى هذا أن المؤرخين المسلمين قد تقدموا خطوة أبعد فى تطور منهجهم للبحث فى التاريخ . فالى جانب المشاهدة عن طريق الرحلة أو معاصرة الأحداث ،

---

(١) على أو مليل ، الخطاب التاريخى - دراسة لمنهجية ابن خلدون (مطبوعات دار الإنماء العربى - بيروت) ، ص٣٣-٣٤ .

(٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم (طبعة دار المعارف بالقاهرة) ، ج٣ ، ص١٢ ومابعدها . على سبيل المثال .

والسماع من شهود العيان ، والنقل عن الرواة جاءت الوثائق والسجلات مصدراً جديداً للمؤرخ لإقامة الدليل والبرهان . وكان هذا التطور فى مناهج البحث موازيًا لتطور فى علم التاريخ نفسه . إذ لم يعد معيار صحة الخبر التاريخى هو نفسه المعيار الأخلاقى الذى استخدمه منهج التعديل والجرح ، وإنما صار موضوعيًا يعتمد على توفر الشواهد المادية التى تؤكد صحة الخبر . وتكمن أهمية كتاب الطبرى فى أن صفحاته جمعت بين المناهج السائدة والمنهج الجديد فى وقت واحد وبشكل تركيبى نادر فى المؤلفات التاريخية .

وقد صار كتاب الطبرى هذا نموذجا لكتب التاريخ الإسلامى العام فى عصور الثقافة العربية الإسلامية ، كما كان مصدرا اعتمد عليه من جاءوا بعده لمعرفة تاريخ القرون الثلاثة الأولى من عمر الحضارة العربية الإسلامية . ومن ناحية أخرى ، كان عصر الطبرى تجسيداً للاستجابة للحاجة إلى «قراءة جديدة» جديدة للتاريخ باعتباره تاريخ الأمة الإسلامية كلها باعتبارها أمة واحدة. وكانت تلك القراءة التاريخية تجاوزاً عن النزعة القبلية والمحلية التى ميزت القراءة أو القراءات السابقة لتواريخ الشعوب التى اعتنقت الإسلام .

ويجدر بنا أن نشير إلى أن التقدم الذى أحرزه علم التاريخ ومناهج البحث فى تلك الفترة لم يكن راجعا إلى كثرة عدد المؤرخين ، أو نموالمادة التاريخية وتراكمها ، أو تطور منهج البحث التاريخى فحسب ، وإنما كان راجعا بالضرورة إلى تعدد اتجاهات التأليف التاريخى وأنماطه التى كان كل منها استجابة لحاجة ثقافية / اجتماعية فرضتها الظروف التاريخية للعالم الإسلامى وحاجته المتجددة إلى إعادة قراءة تاريخية بشكل يناسب الظروف الموضوعية الجديدة .

وقد شهد القرن الثالث الهجرى ، أيضًا ، بروز مراكز ثقافيةعديدة متنافسة على امتداد العالم الإسلامى ، وازدهر النشاط العلمى والفكرى فى مصر وبلاد الشام والمغرب والأندلس ، فضلا عن بلدان المشرق الإسلامى . وكان علم التاريخ واحداً من ميادين المنافسة . وتمثلت النتيجة النهائية فى ظهور التواريخ المحلية التى تتحدث عن تواريخ البلدان ، ثم ظهرت تواريخ المدن التى ذاعت وانتشرت على مدى عصور الثقافة العربية الإسلامية . فقد جدت حاجة ثقافية / اجتماعية جديدة هى منافسة المراكز الثقافية فى شتى أنحاء (دار الإسلام) ، إذ كان المسلمون قد صاروا ، منذ القرن الثالث الهجرى ، أغلبية فى البلاد المفتوحة ، وأخذت كل جماعة تحاول إبراز فضائل البلد الذى تنتمى إليه. وهكذا برزت الحاجة إلى قراءة كلية للتاريخ بعد أن استقرت القراءة الكلية الجماعية لتاريخ المسلمين فى مؤلفات الطبرى ومن سار على نهجه ومنذ ذلك الحين ظهرت المؤلفات التاريخية التى تهتم بجمع كل مايتعلق بإحدى مدن (دار الإسلام) ولم يقتصر الأمر على المدن المقدسة ، مثل مكة والمدينة والقدس ، وإنما اتجه المؤرخون إلى المدن الإسلامية عامة. فظهر تاريخ دمشق لابن عساكر ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، وزبدة الحلب من تاريخ حلب لابن النديم ، وتاريخ إربل لابن المستوفى ، كما ظهرت تواريخ الفسطاط والقاهرة لابن عبد الحكم [١] ، القضاعى، وابن زولاق والأوحدى ، وابن دقماق ، والمقريزى ، السيوطى وغيرهم [٢] .

---

(١) جاء هذا الجزء ضمن كتاب عبد الرحمن بن عبد الحكم ، فتوح مصر أخبارها (نشره تشارلز تورى) لندن سنة ١٩٣٠ .

(٢) قاسم عبده قاسم ، الرؤية الحضارية ، ص١٠٠- ص١٠١ .

وقد تطور هذا النمط الجديد من أنماط الكتابة التاريخية ، أى الخطط التى تجمع بين التاريخ والطبوغرافيا والسكان والجغرافيا . وتحتوى كتب الخطط عادة على قدر معلومات عن تطور المدن وتخطيطها وأحيائها وعناصر السكان والمرافق ذات الوظيفة البلدية ، أو الإجتماعية ، أو الدينية عبر العصور . وترد فى ثنايا تلك المؤلفات معلومات كثيرة هامة عن شتى جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية. وفى مصر كان "عبد الرحمن بن عبد الحكم" هو رائد هذا النمط من أنماط الكتابة التاريخية .

ويعتبر هذا النمط الذى وصل قمة تطوره على يد المؤرخ تقى الدين المقريزى (ت٨٤٥هـ) ، تطوراً نوعيًا هامًا فى ميدان الكتابة التاريخية ، سواء على مستوى المعرفة التاريخية أو على مستوى تطور مناهج البحث التاريخى . فقد تخلى كتاب الخطط عن النمط الحولى فى رواية الخبرالتاريخى ، واختاروا المعالجة التى تتناول كل موضوع على حدة داخل الإطار العام للكتاب . كما أن المؤرخين الذين اهتموا بهذا النمط من التأليف التاريخى تخلوا تمامًا عن أية أسباب غيبية وبحثوا عن السببية فى نطاقها الإنسانى "التاريخى" ، وقد تجسد ذلك تماما فى خطط المقريزى [١] .

وفى تقديرنا أنه من الصعب أن نتتبع جذور نشأة كل نمط من أنماط الكتابة التاريخية فى تراث الثقافة العربية الإسلامية . بيد أننا نستطيع من خلال النظر فى هذا التراث أن نكتشف مدى التنوع والثراء المذهل فى المؤلفات التاريخية ، ومدى استجابة هذه الأنماط من الكتابات

---

(١) المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، (طبعة بولاق ١٢٧٠ هجرية) .

التاريخية للحاجات الثقافية / الاجتماعية التى فرضتها التطورات التاريخية الموضوعية التى شهدتها أنحاء «دار الإسلام».

وقد أحصى شمس الدين السخاوى[١] أنماط الكتابة التاريخية التى كانت معروفة فى زمانه . وقصد بهذا الإحصاء أن يكمل الإحصاء الذى وضعه الذهبى من قبل . كما أن السيوطى كانت له محاولة فى هذا السبيل أيضا .[٢]

وقد أحصى لنا السخاوى موضوعات التأليف فى ميدان التاريخ فيما يلى :

١- تاريخ الرسول والأنبياء .

٢- تاريخ الصحابة .

٣- تاريخ الأشراف ، أى آل طالب وآل على .

٤- تاريخ القرشيين .

٥- تاريخ الموالى .

٦- تاريخ الرواة المعتمدين أو المصنفين .

٧- تاريخ رجال علم الحديث .

٨- تاريخ المعاجم والشيخة .

٩- تاريخ المسمين باسم خاص مثل "عطاء الطبرانى» أو "عبد المؤمن الدمياطى" .

١٠- تاريخ المعمرين والشبان .

---

(١) السخاوى ، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، ص٢١٤ - ص٢٣٨ .

(٢) السيوطى ، حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة (طبعة القاهرة ١٢٩٩هـ) ، ج١ ، ص١٥٨ - ص ١٥٩ ، ص٢٥٤ - ص٢٥٦ .

١١- تراجم الأفراد .

١٢- التواريخ المحلية

١٣- تصانيف البلدان .

١٤- مطلق التاريخ ، وهو ما وصفه بأنه "مطلق التاريخ غير مقيد بوصف ولاجنس ، أو نحو ذلك" ، وهو على أقسام :

(أ) التاريخ على الحوادث .

(ب) الحوادث والوفيات .

(ج) كتب عن تواريخ الوفيات .

(د) كتب التراجم .

(هـ) كتب تواريخ منوعة .

وعلى الرغم من التداخل الواضح بين عدد من هذه الموضوعات ، وعلى الرغم من غياب أنماط أخرى من المؤلفات التاريخية من (إحصائية) السخاوى ، فالواضح أن الدراسات التاريخية العربية قد غطت كافة مجالات النشاط الإنسانى ، فقد كتب المؤرخون فى السيرة النبوية والمغازى ، وفى الطبقات والتراجم ، والتواريخ المحلية ، والخطط، وتواريخ المدن ، كما كتبوا الرسائل ذات الموضوع التاريخى الواحد ، فضلا عن فلسفة التاريخ . ولم يحدث هذا بين عشية وضحاها بطبيعة الحال ، وإنما كان محصلة تطور طويل المدى . كما أن مناهج البحث كانت تتطور باستمرار لحل مشكلات كل نمط من أنماط الكتابة التاريخية . وقد كانت المناهج فى تطورها لخدمة الأنماط الجديدة فى مجال الدراسات التاريخية تبقى على طرق البحث التى تناسب القديم

أيضا ، ولهذا يبدو تراث التدوين التاريخى فى الثقافة العربية الإسلامية وكأنه معرض لتطور علم التاريخ ومناهجه .

والعصر الذى تمثلت فيه كل أنماط التدوين التاريخى العربى هو عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠-١٥١٧م) الذى كان بمثابة المعرض الحى لتاريخ كتابة التاريخ فى إطار الحضارة العربية الإسلامية . والواقع أن مصر والشام قد شهدت فى ذلك العصر نشاطا ثقافيا واسع النطاق . لقد كان عصر السلاطين المماليك آخر عصور الحضارة العربية الإسلامية، وكان التوهج الثقافى والعلمى فيه بمثابة خط الدفاع الأخير عن الثقافة العربية الإسلامية . فقد أدت الظروف التاريخية التى أحاطت بالعالم الإسلامى فى منتصف القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) إلى ظهور دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام لتقوم بدور القوة المدافعة عن العالم الإسلامى على مدى مايزيد على قرنين ونصف من الزمان[١] وفى ظل الأمن والحماية التى وفرتها دولة سلاطين المماليك

---

(١) برز المماليك قوة عسكرية أثناء المواجهة بين مصر وقوات الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ، وقد انتهت الحملة بتدمير الجيش الصليبى وأسر الملك الفرنسى لويس التاسع وبرزت قوة فرسان المماليك البحرية وقادتهم من أمثال أقطاى وبيبرس وقلاون وغيرهم . وبعد ذلك بعشر سنوات قضى المغول على الخلافة العباسية وهزمهم الجيش المصرى بقيادة المماليك (٦٥٨هـ) فى معركة عين جالوت الشهيرة . وأعاد السلطان الظاهر بيبرس إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة لإضفاء الشرعية على الحكم فى الدولة الناشئة – أنظر التفاصيل فى : أحمد مختار العبادى ، قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام (دار النهضة العربية) بيروت ١٩٨٦م) ، ص١٠١-٢٤٠ .

كانت مصر على نحو خاص مقصدا لعدد هائل من العلماء والمفكرين المسلمين من شرق العالم الإسلامى ومغربه ، إذ أن الكوارث السياسية والعسكرية التى حاقت بدار الإسلام فى المشرق والمغرب جعلت العلماء والمفكرين والفنانين يهاجرون إلى القاهرة .

لقد شهدت خمسينيات القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) اجتياح المغول لبلدان الشرق الإسلامى ، وقضت هذه الجحافل الظالمة على الخلافة العباسية فى بغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) ، ومن ناحية أخرى ، كانت المساحة الإسلامية فى شبه الجزيرة الأيبيرية تتراجع أمام زحف الكاثوليك الأسبانى والأوربيين للقضاء على الوجود الإسلامى فى الأندلس . وإزاء مذابح الكاثوليك تزايدت أعداد المهاجرين إلى مصر والقاهرة من أبناء الأندلس، كما أن الظروف السياسية المتقلبة دفعت عدداً من أبناء المغرب الإسلامى إلى أحضان القاهرة ، ومن أشهرهم "عبد الرحمن ابن خلدون" الذى لم يكن حالة فريدة بين المهاجرين المغاربة . وكان الزمان مايزال ينتظر بعضًا من أهم إنجازات الفكر والثقافة العربية فى عصر سلاطين المماليك .

ولم يكن علم التاريخ بمنأى عن هذه التطورات والأحداث بطبيعة الحال. فقد وصلت الكتابة التاريخية فى ذلك العصر إلى قمتها فى ظل الظروف الثقافية العربية الإسلامية ، سواء من حيث التراكم والنمو المعرفى فى التراث التاريخى نفسه ، أو من حيث تطور مناهج البحث فى الدراسة التاريخية التى خرجت من خير "الخبر" و"الرواية" المجردة إلى طور جديد يهتم بمناقشة الأسباب فى سياقها الوضعى . وزادت أهمية علم التاريخ باعتباره علما ذا وظيفة ثقافية / اجتماعية . وتبلورت

فكرة التاريخ بشكل واضح حتى وجدنا من مؤرخى ذلك العصر من يكتبون فى فلسفة التاريخ ، والأسس النظرية التى يقوم عليها التدوين التاريخى ، ومنهج البحث التاريخى ، مثل "ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون" (ت ٨٠٩ هجرية) ، كما ظهر من علماء ذلك العصر من كتب فى تاريخ التاريخ مثل "شمس الدين السخاوى" و"جلال الدين السيوطى".

وقد شهد هذا العصر النقلة النوعية الكبيرة الثانية فى تطور مناهج البحث التاريخى ، وهو الاتجاه الجديد الذى بلورته نظريًا ، كتابات ابن خلدون ، كما جسدته عمليًا كتابات المؤرخين الذين تتلمذوا عليه وأشهرهم "تقى الدين المقريزى" (ت ٨٤٥هـ) وتكمن أهمية ابن خلدون وكتاباته فى آرائه التى طرحها فى مقدمته الشهيرة عن علم التاريخ ، إذ أن هذه المقدمة تضمنت آراء ونظريات هامة تمثل حصاد التراث التاريخى على مر عصور الثقافة العربية الإسلامية . ولسنا بصدد تكرار ماهو معروف ومشهور من آراء ابن خلدون[١] ، ولكننا نقصد أن نوضح أن تطور مناهج البحث التاريخى وصل إلى مرحلة جعلت من الضرورى مناقشة ونقد مناهج البحث التى قامت عليها أنماط الكتابة التاريخية المختلفة حتى ذلك الحين لقد أحس ابن خلدون بأن الحضارة العربية الإسلامية فى ذلك العصر تواجه أزمة ذات كبيرة وأنها تحتاج إلى إعادة قراءة تاريخها على أساس نقدى لتأكيد الهوية فى مواجهة الهجوم من الخارج والتدهور من الداخل . وفى تصورنا أن أهم تطور منهجى بلوره ابن خلدون فى مجال الدراسات التاريخية هو البحث عن العلاقة السببية

---

(١) راجع مقدمة ابن خلدون ، انظر أيضا : على أو مليل ، الخطاب التاريخى، ص١٢٩ - ص١٧٠ حيث مناقشة تفصيلية ، من وجهة نظر حديثة ، لآراء ابن خلدون .

الوضعية فى وثائق التاريخ نفسها أو فى "أحوال العمران" على حد تعبيره[١] . فقد بلور اتجاها جديداً فى منهج البحث التاريخى يرفض الحكم على صحة الخبر بمعيار أخلاقى يعتمد على عدالة رواة الخبر (كما هو الحال فى منهج الجرح والتعديل فى الحديث النبوى) وإنما يجعل وقائع التاريخ واتساقها المنطقى ، ومطابقتها لقواعد الاستقراء والاستنباط ، معياراً على صحة الخبر التاريخى .

ولم يكن هذا اتجاهًا جديداً "اخترعه" ابن خلدون ، ولكن المؤرخين المسلمين كانوا قد بدأوا فى استخدامه بصورة أو بأخرى منذ وقت مبكر . ولكن أهمية ابن خلدون تتمثل فى قدرته على بلورة هذا التطور المنهجى فى إطار نظرى متكامل. فقد كان المؤرخون قد تجاوزوا منهج الإسناد الذى يعتمد على أخلاقيات الرواة منذ فترة طويلة قبل ابن خلدون ، بل إن "ابن جرير الطبرى" نفسه قد استخدم الوثائق والسجلات إلى جانب الإسناد فى كتابة الشهير . وعلى مستوى الواقع كان علم التاريخ قد أصبح ممارسة علمية مستقلة عن العلوم الدينية ومناهجها ، ولا سيما علم الحديث .

ومن ناحية أخرى ، لم يكن ماكتبه ابن خلدون إيذانا بنهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة فى مجال الدراسات التاريخية ، ولم يكن ممكنًا

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص٣٧ ، حيث يقول " وإنما كان التعديل والجرح هو المعتبر فى صحة الأخبار الشرعية ، لأن معظمها تكاليف إنشائية أوجب الشارع العمل بها حتى حصل الظن بصدقها . وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة ، بالعدالة والضبط . وأما الأخبار عن الواقعات فلابد فى صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة، فلذلك وجب أن ينظر فى إمكان وقوعه ، وصار فيها ذلك أهم من التعديل ، ومقدما عليه ..) .

أن يحدث هذا . فقد استمرت الأنماط والمناهج القديمة تعريد إلى جانب المناهج الجديدة التى تبلورت فى كتابات مؤرخ كبير هو تقى الدين المقريزى[١] الذى أبدى اهتمامًا واسعًا بجوانب الحياة الإجتماعية والإقتصادية والثقافية . كما أنه كشف عن إدراك عميق ووعى واضح بأهمية العلاقة السببية الوضعية داخل الظاهرة التاريخية التى يتناولها. وتجلى هذا بوضوح شديد فى كتابه الصغير الهام الذى يحمل عنوان «إغاثة الأمة بكشف الغمة» .

وثمة نمط آخر من الكتابة التاريخية يمثله كتاب السخاوى "الإعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ" وهو كتاب تبريرى مكرس للدفاع عن علم التاريخ وجدوى الدراسة التاريخية ، كما يتناول تاريخ التاريخ ويقدم محاولة إحصائية لفروع الدراسة التاريخية على النحو الذى بيناه فى الصفحات السابقة .

ولم يكن "ابن خلدون" و"السخاوى" فقط مهتمين بهذه النواحى المنهجية والنظرية فى الدراسات التاريخية وإنما شاركهما فى ذلك عدد كبير من المؤرخين فى التراث الذين ضمنوا آراءهم فى مقدمات كتبهم أو فى طيات صفحاتها ، لكن "ابن خلدون" و"السخاوى" يتميزان بأن كلاً منهما خصص كتابًا كاملاً لهذا الموضوع من جانبين مختلفين.

---

(١) الواقع أن فكرة التاريخ لدى المقريزى ، ومنهجه فى الكتابة التاريخية ، وتحليله الناقد لكافة الظواهر التاريخية ، فضلا عن استيعابه الكامل للأفكار التى طرحها ابن خلدون وقدرته على تطبيقها على نحو لم يستطع ابن خلدون نفسه أن يحققه فى كتاب (العبر) كل هذا يجعل من المقريزى علما من أعلام الفكر التاريخى. أنظر على سبيل المثال كتابه اغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشر محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٤٠م) .

لقد كانت كتابات مؤرخى القرنين الثامن التاسع الهجريين تجسيداً لمدى التطور الذى أحرزته الكتابة التاريخية ، ومناهج البحث التاريخى، فى التراث العربى الإسلامى . وقد أفرزت تلك الفترة عددا من المؤرخين الأفذاذ ، فى مصر والشام ، تجسدت فى كتاباتهم فكرة التاريخ ، وعكست أيضا مدى التطور الذى وصل إليه منهج البحث التاريخى .

وفى كتابات كل من بيبرس الدوادار الناصرى (٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م) وأبو الفداء (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) ، وابن فضل الله العمرى (٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م) ، وشمس الدين الذهبى (٧٤٨هـ/ ١٣٤٩م) ، والقلقشندى (٨٢١هـ/ ١٤١٨م) ، وابن حجر (٨٥٢هـ١٤٤٩م) والمقريزى (٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م) ، وابن تغرى بردى (٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م) وابن إياس (٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م) .. وغيرهم نجد تراثا متنوعا ومثيرا فى أنماط الكتابة التاريخية ، كما نلحظ تفاوت مناهج الدراسة التى تدل على أن المناهج القديمة كانت ماتزال تعربد إلى جانب المناهج الجديدة[١] ومن البديهى أن هذا التراث المتنوع من الكتابات التاريخية الذى حفظه لنا عصر سلاطين المماليك قد عكس تطور العلم التاريخى من حيث المستوى المعرفى ومناهج البحث والدراسة على حد سواء .

وتكشف دراسة هذا التراث عن أن العلاقة بين علم التاريخ ومناهج البحث فيه كانت علاقة جدلية ، فبقدر مساهمة المناهج فى بناء العلم بقدر ماكان التطور المعرفى يساعد على تطوير مناهج البحث وطرق البحث وأساليبه .

---

(١) أنظر تحليل مؤلفات أولئك المؤرخين ومناهجهم .

قاسم عبده قاسم ، الرؤية الحضارية ، ص١١٥ — ص٢٦٢ .

وكانت تلك قمة تطور الدراسات التاريخية فى تراث الثقافة العربية الإسلامية ، فمنذ القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) اكتسبت الرواية التاريخية طابع السرد والاجترار ، وتسجيل الشهادات التاريخية ، أو إعادة ماكتبه المؤرخون السابقون بصورة اجترارية . وكان ذلك فى حقيقة الأمر انعكاسا لتدهور عام ألم بالحضارة العربية الإسلامية عامة .

-٦-

أما التراث التاريخى لدى الغرب الأوربى فى معناه الواسع ، فقد ولدت بداياته فى الإلياذة والأوديسبة المنسوبتين إلى هوميروس . فعلى الرغم من الطابع الخيالى العام فى هاتين الملحمتين ، فإن من الممكن لدارسى الحضارة اليونانية القديمةاستخدام الإلياذة والأوديسية لتصوير حقبة من حياة الإغريق القدامى دون الوقوع فى خطأ فادح . وعلى الرغم من أن علماء الآثار قد كشفوا عن تاريخية حرب طروادة التى أنشدها هوميروس بالشعر والقصص فإن اختلافات كثيرة ماتزال قائمة بين ما أنشده الشاعر وما كشف عنه البحث التاريخى والأثرى الحديث[١] . ومن يبحث فى هاتين الملحمتين عن التاريخ يجد خيالا كثيرا ، ومن يبحث عن الخيال يجد تاريخا كثيرا ، إذ أن هذه البدايات الأولى لعلم التاريخ عند الإغريق كانت مكبلة بأغلال الأسطورة والخيال . ومن ناحية أخرى ، تكشف هاتان الملحمتان عن أن الآلهة تمارس نوعا من الرقابة على العالم، وأن نطاق القدرة الإنسانية ينتهى عند حدود معينة، إذ كانت آلهة الإغريق تتدخل فى مسلك الناس الواقعى [٢] وقد أثر ذلك

---

(١) لطفى عبد الوهاب ، (عالم هوميروس) ، مجلة عالم الفكر (المجلد الثانى عشر ، أكتوبر - ديسمبر ١٩٨١م) ، ص١٣- ص١٥ .

(٢) ويدجرى ، المذاهب الكبرى فى التاريخ -من كونفوشيوس إلى توينبى ، ترجمة ذوقان قرقوط ، (بيروت ١٩٧٣) ، ص٧٨ - ص٧٩ . ومن المهم هنا أن نشير إلى أننا استخدمنا ترجمة أخرى لهذا الكتاب (ترجمة عبد العزيز جاويد)=

بطبيعة الحال على رؤية الإغريق للتاريخ حتى ظهور كتاب هيرودت . وحتى ذلك الحين كانت القراءة الأسطورية للتاريخ هى التى تناسب الظروف الموضوعية التى كانت سائدة فى بلاد اليونان القديمة.

ولم تبدأ الكتابة التاريخية بمعناها التقليدى قبل توفر شروط معينة فى الحياة الثقافية الاجتماعية فى الحضارة الإغريقية القديمة ، وهو الأمر الذى لم يحدث قبل القرن السادس قبل الميلاد . وتجلى ذلك واضحا فى الكتابات النثرية الراقية ، ونقد الأساطير التى تتعلق ببداية الوجود اليونانى القديم ، ثم تحول الاهتمام إلى الأصول الاجتماعية والمؤسسات التى تنظّم حركة المجتمع ونشاطه . وبمنتصف القرن السادس قبل الميلاد بدأت الرواية التاريخية تظهر فى مدينة ملطية Miletus على ساحل أيونيا Ionia (آسيا الصغرى) ففى هذا القرن قدم كادموس الملطى Cadmus of Miletus نموذج الكتابة النثرية عوضا عن الشعر ، ويعد "كادموس" هذا واحدا من أوائل كتاب النثر الاغريق Log-ographoi [٢] وفى الفترة نفسها ظهرت الفلسفة التأملية التى جلبت معها أصول الفكر الحر والفلسفة النقدية . ومن ناحية أخرى ، فإن حركة الاستعمار الاغريقى ، والنشاط التجارى مع الشرق - فضلا عن السفر إلى بلاد الشرق - كلها كانت من العوامل القوية التى ساهمت فى تحضر

= أشرنا إليها فى الصفحات الأولى من هذه الدراسة . وسف تكون إشاراتنا التالية هذه الترجمة .

(٢) Barnes, A Hist. of Historical Writing, P. 26 .

إغريق آسيا الصغرى . وبحر إيجه على السواء . وقد أدى هذا بدوره إلى تطوير الفكر الإغريقى ومولد الروح النقدية التى تمثل أساس الفلسفة الإغريقية والأدب ، إلى جانب الكتابة التاريخية أيضا . وهنا برز الحاجة إلى قراءة إنسانية للتاريخ بوصفه فعاليات بشرية وليس من أفعال الآلهة وهذا الاتصال الثقافى استفز حب الاستطلاع ، ولم يكن من قبيل الصدفة أن هيكاتيوس Hecataeus (ولد سنة ٥٥٠ ق.م) ، أول المؤرخين الإغريق ، قد سافر كثيرا إلى مصر [١] . كما أن استيلاء الفرس على آسيا الصغرى ، أوجد المزيد من فرص الاتصال الثقافى .

وهكذا يمكن اعتبار نشوء الكتابة التاريخية الإغريقية جزءا من الحركة الفكرية الكبرى المعروفة بظهور الكتابات النثرية Logographoi وظهور التيارات الفلسفية النقدية بين إغريق أيونيا (آسيا الصغرى) .

على أن الكتابات التاريخية الإغريقية فى تلك الفترة لم تخل من التأثير الأسطورى والدينى الذى يطبع المرحلة الأولى فى تاريخ الكتابة التاريخية لدى كل أمة . ذلك أن هسيود Hesiod كتب التاريخ كما كتب عن الآلهة الأغريقية وحاول أن يجد لها نسبا .

ثم أخذت الاتجاهات الثقافية تتصاعد فى مجال الكتابة النثرية . وما بين شجرات النسب التى حاول هسيود أن يثبت بها "أنساب" الآلهة، وكتاب "التواريخ" الذى كتبه هردوت تمت بسرعة عدة إنجازات فى مجال

---

(١) Ibid, p. 27 .

الكتابة التاريخية ، إذ أن خارون لامبساكوس Charonr of Lampsacus وديونيسيوس الملطى ، ألفا فى تاريخ الفرس فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، كما أن سكيلاكس كارياندا Scylax of Caryanda كتب أول سيرة تاريخية . وفى أخريات القرن الخامس قبل الميلاد ألف أنطيوخوس السيراكيوزى Antiochus of Syracuse أول كتاب تاريخ عن الشعوب اليونانية . ويعتبر هيلانكوس ليسبوس Hellanicus من أهم المؤرخين القدامى الذين مهدوا لظهور هيرودوت . إذ أنه لم يتعرض لتاريخ بلاد فارس وبلاد اليونان من وجهة نظر اجتماعية واسعة فحسب ولكنه كان أيضا أول مؤرخ إغريقى يدرك أهمية وجود نظام زمنى للتتابع التاريخى (١) .

كان أول مؤلف تاريخى شامل كتبه واحد من الاغريق هو كتاب هيرودوت Herodotus of Halicarnasus (٤٨٤-٤٢٥ ق.م تقريبا) وقد تناول فيه العلاقات الإغريقية – الآسيوية من سنة ٥٦٠ق.م حتى هزيمة الغزاة الفرس فى بلاد اليونان سنة ٤٧٨ ق.م وكانت هذه النقلة فى ميدان التأليف التاريخى عند الإغريق ناجمة عن الحروب الفارسية التى أيقظت فى عقول الإغريق الاهتمام بحضارات الشعوب الشرقية . وفى هذا السياق ظهرت (تواريخ) هيرودوت ، وهى عبارة عن تسعة كتب فى مجلد واحد . وقد نزلت كتب هيرودوت التسعة بالتاريخ إلى أرض البشر، بعد أن كان التاريخ يبحث فى حكومات الآلهة وأنصاف الآلهة .

---

(١) Ibid, pp. 27 - 28 .

وتتجلى أهمية هيرودوت الحقيقية فى أنه أثبت أن للمعرفة التاريخية مكانة هامة على الرغم من الاتجاهات الثابتة فى الفكر اليونانى والقائلة بأن الحقائق الثابتة التى لايدركها التغيير هى وحدها الجديرة بالمعرفة . ومعنى ذلك أن المعرفة التاريخية فاشلة لأنها تهدف إلى معرفة الظواهر التى يدركها التغيير[١] . وقد فرق أرسطو فى كتابه "فن الشعر" بين الشعر بوصفه التمثيل الأعلى والتاريخ الذى يصور الأحداث الواقعة ، وأعلى من شأن الشعر على حساب التاريخ[٢].

لقد استخدم هيرودوت كلمة "إيستوريا" اليونانية عنوانا لكتبه التسعة ، وهى كلمة تعنى البحث والاستفسار من أجل الفهم ، مما جعل المعنى يتركز على خاصتين أساسيتين من خواص الفكر اليونانى القديم ، هما : المشاهدة والاستفسار ، وبهذا نزل هيرودوت بالتاريخ من عالم الآلهة إلى علم إنسانى يهتم بالبشر ونشاطهم على الأرض . ولهذا السبب يعتبر إمام الدراسات التاريخية فى التراث الأوربى عامة . وكانت كتبه التسعة علامة على النقلة النوعية الهامة فى علم

---

(١) كولنيجوود ، فكرة التاريخ ، ص٧٢ - ص٧٧ ؛ هردوت يتحدث عن مصر، ترجم الأحاديث عن اليونانية صقر خفاجة وقدم لها وشرحها أحمد بدوى (دار القلم ، القاهرة ١٩٦٦م) ، ص١٥ .

Finley, M.I., The Portable Greek Historians (New York. 14 th ed., 1972), pp. 1-9, Passim .

(٢) أرسطو طاليس ، فن الشعر - مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابى وابن سينا وابن رشد ، ترجمه عن اليونانية عبد الرحمن بدوى (النهضة المصرية ١٩٥٣م) ، ص٢٦-ص٢٧ .

التاريخ من جهة ، ومنهج البحث التاريخى من جهة أخرى . ولأن كتاب هيرودوت كان يقوم على موضوع أساسى هو الحروب الفارسية التى كانت تعنى بالنسبة له صدما بين حضارتين ، فإنه اهتم بأن يحيط القارئ علما بكل مايتعلق بهاتين الحضارتين . ولأن هذا العمل قد تم من منظور تاريخى / اجتماعى ، فإنه قدم لنا فيضا من المعلومات الممتعة والمفيدة عن شعوب شرق المتوسط ، وآسيا فى القرنين السادس والخامس ق.م[١] .

بيد أن انحياز هيرودوت للديمقراطية الأثينية جعل الجزء الذى كتبه عن الفرس يفتقر إلى الدقة ، بحيث اختلطت فيه العناصر التاريخية بغيرها . كما أن الجزء الذى خصصه عن مصر يحفل بالكثير مما يدخل فى باب الأسطورة والخرافة[٢] بيد أن شهرة هيرودوت باعتباره أول من وضع أصول علم التاريخ فى تراث الغرب الأوروبى ستظل باقية ، لأن اهتمامه بالمعطيات ، ومختلف أشكال التنظيم الاجتماعى ، وعادات وتقاليد الشعوب ، أكسب أعماله تلك الأهمية[٣] .

وثانى المؤرخين الإغريق الكبار ، من حيث أهميته فى تاريخ التاريخ، هو ثوكيديدس Thucydides (٤٥٦-٣٩٦ ق.م تقريبا) الذى كتب تاريخ الحرب البلوبونيزية بين أثينا واسبرطة . وقد تناول الأحداث التاريخية بمنهج يختلف كثيرا عن منهج هيرودوت ، إذ أنه تخلى عن

---

(١) Barnes, A History of Historical Writing, pp. 28-29.

(٢) أنظر : أحمد بدوى ، هردوت يتحدث عن مصر .

(٣) ويدجرى ، المذاهب الكبرى ، ص٨٢ .

رواية القصص المسلية .. وأخذ يروى الأحداث التاريخية على النحو الذى يراه ، كما استبعد الأساطير والخرافات التى تضمنتها كتابات هيرودوت[1] فقد نزع هذا المؤرخ عن الكتابات التاريخية اليونانية غطاء الشعر الملحمى والغيبيات الذى كان يحجبها ، وربط الأحداث التاريخية فى علاقة سببية وضعية وسياق إنسانى .

وأهم أعمال ثوكيديديس كتابه "الحروب البلوبونيزية" (٤٣١ - ٤٠٤ق.م) الذى يغطى مجالا يضيق كثيرا عن مجال كتاب هيرودوت . وتتمثل مساهمة ثوكيديديس فى تاريخ الكتابة التاريخية فى أنه أرسى أسس النقد التاريخى ، وطور منهجا فى البحث التاريخى على أساس أن قيمة الدراسة التاريخية لاتكمن فى متعة التسلية التى يوفرها السرد القصصى ، وإنما تتمثل فى دقة الأسلوب . ويرى البعض أن ثوكيديديس يستحق أن يتبوأ مكانه باعتباره مؤسس علم التاريخ بمعناه النقدى والعلمى[2] فقد أصر على نقد مصادره كما أدخل الوثائق ضمن النسيج الفعلى لروايته . ومن ناحية أخرى أوضح أن إرادة البشر عامل فى صنع التاريخ .

وعلى الرغم من هذا كله ، فإن كتابات ثوكيديدس لم تخل من بعض الأخطاء الفادحة فهو لم يستوعب مفهوم الزمن والتتابع الزمنى للأحداث التاريخية ، كما أنه لم يستطع أن يرى الأحداث فى سياقها التاريخى الفعلى ، وانما قدم لنا صورا تبدو جامدة مثل الصور الفوتوغرافية ، فضلاً عن أنه فى أحوال كثيرة انحاز للأسلوب الأدبى على حساب

---

(١) Barnes, op. Cit., p. 30 .

(٢) ويدجرى ، المذاهب الكبرى ، ص٨٤ ؛ Barnes. A. Hist., pp. 30-31.

الحقيقة التاريخية فوضع على ألسنة الأشخاص التاريخيين خطبًا ونسب إليهم كلامًا كان يرى أنه ينبغى أن يكتب بغض النظر عن الحقيقة.

وآخر المؤرخين الإغريق الكبار هو بوليبيوس (١٩٨-١١٧ ق.م) ومن حيث انتاجه فى مجال التأليف التاريخى كان متفوقا على ثوكيديديس ، ولكنه كان ندأ له فى تقرير الحقيقة التاريخية . وكتابه "التاريخ" مؤلف طموح فى أربعين جزءا يتناول توسع الإمبراطورية الرومانية وتطور مؤسساتها حتى سنة ١٤٦ ق.م . ولأنه كان يونانيا قضى معظم حياته فى روما ، فقد تناول تاريخ الإغريق والرومان بروح محايدة .

وتتمثل مساهمة بوليبيوس فى تقدم علم التاريخ فى أنه سارْ خطوة أبعد من ثوكيديديس فى مجال تطوير منهج البحث التاريخى . ففى الكراسة الثانية عشرة من كتابة نجد أول مقالة كبيرة عن مناهج البحث فى علم التاريخ . وربما يكون من المفيد أن نقتبس بعض أفكاره ، إذ يقول "علم التاريخ ذو أبعاد ثلاثة : أولا ، التعامل مع الوثائق المكتوبة وترتيب المادة التى يتم الحصول عليها من هذا السبيل . ثانيا ، الطبوغرافيا ، أى مظاهر المدن والأماكن ووصف الأنهار والموانىء ، وعموما ، الملامح المميزة للبحار والبلاد ، ومسافاتها . ثالثا ، الشئون السياسية ثم يتحدث عن المنهج الذى ينبغى استخدامه حتى تصبح الدراسة التاريخية دراسة مثمرة[١] .

وهكذا أعطى بوليبيوس لتسلسل الأحداث التاريخية قيمة نفعية ، وأبرز أن البشر ، بسلوكهم وأخلاقهم ، أصحاب دور متفوق فى صنع التاريخ . وقد أوضح ، أيضا ، أن سيطرة الرومان على العالم تعود إلى

---

(١) Barnes, A Hist., pp. 33-34 .

أسباب إنسانية بحتة هى "ترتيبهم لأنفسهم عن طريق غارات واسعة ومجازفات خطرة"[١] .

أما مساهمة الرومان فى مجال الفكر التاريخى فلم تكن ذات بال ، ومثلما كان الحال فى مختلف جوانب الثقافة والفكر ، كان الإغريق أساتذة الرومان أيضا فى مجال الفكر التاريخى . والدليل الواضح على أن تراث الفكر التاريخى الرومانى كان فرخا من أفراخ الفكر التاريخى الإغريقى هو أن معظم الكتابات التاريخية الرومانية ، حتى القرن الثانى ق.م ، كتبت باللغة اليونانية .

وفى ظل الإمبراطورية الرومانية كانت المعرفة التاريخية تخدم أغراضًا عملية بحتة ، إذ كانت الحوليات الرومانية Annals عبارة عن سجلات للأحداث فى تتابع زمنى ، وتضم أسماء الموظفين والجوائز التى منحت فى المسابقات الرياضية المحلية ، والاتفاقيات التى عقدت ، أو الحروب التى تم خوضها . وكان كتاب تلك الحوليات يدونونها لكى تكون مرجعا لاستقاء المعلومات عند الضرورة [٢] لقد كان الرومان يهتمون بالإنجازات العلمية أكثر من التأملات العقلية ، ولذلك اهتموا بهذه الحوليات [٣] .

---

(١) ويدجرى ، المذاهب الكبرى ، ص٩١-ص٩٣ .

(٢) بيريل سمالى ، المؤرخون فى العصور الوسطى ، ترجمة قاسم عبده قاسم (ط. ثانية دار المعارف) ، ص٢١ .

(٣) ويدجرى ، المذاهب الكبرى ، ص٩٠-ص٩١ .

وكانت حوليات فابيوس بكتور Fabios Pictor (ولد سنة ٢٥٤ ق.م) من أوائل هذه الحوليات الرومانية . بيد أو أول مؤرخ رومانى كبير، بمقاييس عصره ، كان القائد الرومانى الشهير يوليوس قيصر (١٠٠-٤٤ق.م) الذى تميزت كتاباته بالدقة والوضوح ، كما أن أسلوبه يتسم بالقوة والمباشرة . وكان كتاباه عن "الحرب الأهلية" و"حرب بلاد الغال" من أفضل كتب المذكرات العسكرية فى العالم القديم .

أما سالست [١] Gaius Sallustius Crispus (٨٦-٣٤ ق.م تقريبا) فيمكن اعتباره التلميذ الرومانى لثوكيديديس . ومؤلفه الأساسى عن تاريخ روما (٧٨-٦٧ ق.م) ضاع ولم يصلنا . ولكن رسالته Monograph عن "مؤامرة كاتيلينا" ورسالته عن "الحرب اليورجورتية" تكشفان عن قدرة فى تحليل الشخصيات والقوى السياسية. بيد أنه أهمل العنصر الزمنى كما أهمل الجغرافيا بشكل أثر سلبيا على مؤلفاته . وقد تناول سالست التاريخ باعتباره فرعا من فروع علم الأخلاق ، وكان له تأثير كبير على مؤرخى العصور الوسطى .

ويأتى ليفيوس [٢] Titus livius (٥٩ ق.م - ١٧م) باعتباره واحدا من أهم المؤرخين الرومان ، بل إن بعض الباحثين يصفونه بأنه

---

(١) سمالى ، المورخون فى العصور الوسطى ، ص٢٥ - ص٢٦ .

Barnes, A Hist., pp. 36-37 .

(٢) كولينجوود ، فكرة التاريخ ، ص٨٥- ص٩١ ؛ سمالى ، المؤرخون فى العصور الوسطى ، ص٢٤-ص٢٥ ، ويدجرى ، المذاهب الكبري ، ص٩٨-ص٩٩ ،

Barnes, op. cit., p 37 .

مـؤرخ رومـا الـوطنـى ، وبأنـه واحـد مـن أعـظـم رواة القـصـص فـى كـل العصور. ويتناول مؤلفه ، الذى يعتبر ملحمة نثرية ضخمة ، تطور الدولة الرومانية العالمية . وقد اتخذ ليفيوس من البلاغيين الإغريق قدوة له . وكان هدفه من تأليف هذا الكتاب تمجيد روما وأن يبث فى الشباب روح الولاء لروما والتفانى من أجل رفعتها . ويشوبه عدم الدقة فى استخدام المصادر ، فقد وجد أمامه عددا من الأساطير فضمنها روايته التاريخيه، وعـادت الآلهـة مـرة أخرى تطـل مـن روايتـه وتتـدخل فـى شئـون البشـر اليومية . وقد اعتمد ليفيوس على كتابات المؤرخين السابقين وعلى السجلات التى حفظت تاريخ روما الباكر ، وكان يعتقد أن نجاحه يعتمد على مـا أوتى مـن صفات الأديب . ولكن الجديد فـى كتابتـه أنه سرد تاريخ رومـا منذ نشـأتهـا ، وكان فـى ذلك مـعـبرا عـن الرومـان الذين اعـتـقدوا أن تاريخهم فقط هو الجدير بالتدوين لثقتهم فى تفوقهم على الشعوب الأخرى .

أما آخر المؤرخين الرومان الكبار فهو تاكيتوس Publius Conelius Tacitus (٥٥-١٢٠م تقـريبـا) [١] الـذى كـان واحـدا مـن أعـضـاء

---

(١) أنظر المقدمة التى كتبها (ماتنجلى H. Mattingly) للترجمة الإنجليزية لكتابيه Germania, Agricola :

Tacitus, The Agricola and the Germania, Transl. and edited by H. Mattingly (Penguin Classics, 1970).

أنظر أيضا مقدمة كينيت ولسلى فى مقدمة الترجمة الانجليزية لكتابة التواريخ :

Tacitus, The Histories, transl and edited by Kennetk Wellesley, (Penguin Classics 1974) ; Barnes, A Hist. of Historical Writing, p. 38 .

مجلس الشيوخ الرومانى Senato وكان من أنصار الجمهورية ، فتميزت كتاباته ضد الإمبراطورية . أهم مؤلفاته "الحوليات" التى تتناول الفترة مابين موت أغسطس حتى سنة ٦٩ ميلادية ، "والتواريخ" الذى يبدأ بأزمة سنة ٦٩م ويغطى فترة حكم الأباطرة من أسرة فلافيوس . وبالإضافة إلى مؤلفاته (التاريخية) الخالصة ، يعتبر كتابه عن الجرمان واحدا من أوائل المؤلفات فى الانثروبولوجيا الوصفية فى تاريخ الثقافية الغربية ، فهو المصدر الوحيد عن عادات وتقاليد ومؤسسات الجرمان الاجتماعية فى تلك الفترة الباكرة من تاريخهم . ويمكن تقييمه فى مكانة وسطى بين بوليبيوس وليفيوس .

ومن خلال متابعة التراث التاريخي للرومان نكتشف أن مؤرخيهم افتقروا إلى الأصالة من ناحية ، وكانوا باستمرار تحت وطأة التراث الإغريقى من ناحية أخرى[١] لقد كان المؤرخون الرومان تلاميذ حقا على تراث التدوين التاريخى الإغريقى ، بيد أن الموضوع المفضل بالنسبة لهم جميعا كان تاريخ روما ، من حيث أصولها وتوسعها ، ومن حيث سير المشاهير فيها من القادة السياسيين والعسكريين . ولم يلق المؤرخون الرومان بالا إلى تواريخ الشعوب الأخرى .

أما وظيفة التاريخ الثقافية / الاجتماعية ، فكانت تنحصر فى إعداد المرء للحياة السياسية والعسكرية . وقد أثر هذا بالضرورة على مناهج الدراسة التاريخية بشكل سلبى ، فقد كان التاريخ نوعا من

---

(١) سمالى ، المؤرخون فى العصور الوسطى ص٢١ Barnes, op. cit., pp. 37-40, ويدجرى ، المذاهب الكبرى ، ص٩٩–ص١٠١ .

التأليف الأدبى ويستخدم للقراءة أو السماع . وكان التاريخ فى النظام التعليمى الرومانى يعد فرعا من فروع البلاغة التى تؤهل الطالب فى المدارس العليا للخطابة فى المجالس العامة ، أو فى ساحات القضاء ومن ثم فإنه يجب أن يتسلح بالأمثلة التاريخية باعتبارها أفضل الوسائل لجذب انتباه السامعين(١) .

وقد أثر هذا ، بالضرورة ، على منهج الكتابة التاريخية وأسلوبها ، إذ ترسخت بعض التقاليد الأدبية التى تعين على المؤرخ أن يتبعها على حساب الحقيقة التاريخية . فقد كان على المؤرخ أن يجعل شخصيات مؤلفه تنطق بخطب أو كلام من تأليفه . كما كان تغيير التواريخ الواردة فى النصوص الأصلية أمرا واردا ، فضلا عن أن نسخ المراسيم والمعاهدات كانت غير مستحبة لأنها تكسر النسق البلاغى للقصة التاريخية .

وفى الفترة التى اصطلح على تسميتها "العصور الوسطى الباكرة" ، وهى الفترة التى أعقبت العصر الكلاسيكى ، انحصرت كتابة التاريخ بشكل يكاد يكون تاما فى الحوليات التى افتقرت إلى عنصر التحليل ، بل وخلت من السرد التاريخى . وعلى الرغم من أن مؤرخى العصور الوسطى غالبا ما يظهرون إحساسا بالمفهوم التاريخى أعمق مما يصفه بهم مؤرخو الكتابة التاريخية ، فأنهم خلطوا بين أفعال الإنسان وأفعال الرب والقديسين فى مؤلفاتهم بشكل مثير (٢) .

---

(١) سمالى ، المؤرخون فى العصور الوسطى ، ص٢٢ - ص٢٥ ، Arthur Marwick, The Nature of History, (Macmillan, London 1973) p, 26 .

(٢) I bid., pp. 26-27 .

لقد أخذ المؤرخون الأوربيون فى العصور الوسطى المحتوى والأسلوب عن الكتاب المقدس ، وكانت تلك قيودا شديدة كبلت البحث التاريخى والكتابة التاريخية طوال العصور الوسطى ، ولأنهم لم يتمكنوا من تطوير مناهجهم الخاصة ، فقد أخذوا أشكال وأنماط التدوين التاريخى من الرومان . ولم يكن هناك أى تأليف حقيقى فى مجال التاريخ ، وإنما كان مايحدث نوعا من الجمع للأحداث التاريخية وصبها فى قوالب معدة سلفا . ولم يكن مؤرخو العصور الوسطى جاهلين بالحقيقة ولكنهم كانوا يكتبون ماينبغى عليهم كتابته حتى يوافق النموذج السائد ، سواء من حيث المحتوى المسيحى ، أو من حيث الشكل والنمط الرومانى .

لقد كان المؤرخ فى العصور الوسطى يجد نفسه أمام تراثين مختلفين فى مجال كتابة التاريخ ، فهاهى النماذج والأنماط وقواعد التأليف الكلاسيكية ماثلة أمامه من ناحية ، وهاهو النظام المسيحى لتقسيم الزمن التاريخى ، وتصوره لحركة التاريخ التى تحكمها العناصر الغيبية وفكرة التاريخ الغائية فى التراث اليهودى / المسيحى من ناحية أخرى .

وعلى الرغم من أن المؤرخين الرومان القدامى قد ضمنوا كتاباتهم عناصر غيبية باعتبارها تدخلا من الآلهة الرومانية فى شئون البشر ، فإن العناصر الإلهية والغيبية فى إطار فكرة التاريخ المسيحية لم تدخل فى بناء الرواية التاريخية فحسب ، وإنما كانت تتحكم فى سياق الرواية التاريخية أيضا . ذلك أن العناصر الغيبية فى المفهوم المسيحى راسخة ومحددة ، فالرب هو خالق العالم و"كاتب" تاريخه أيضا ، ولابد لأية كتابة تاريخية أن توائم نفسها مع هذا المفهوم الذى تصور أن التاريخ يجرى فى قالب محدد سلفا ولا دخل للإنسان فى صناعته .

وقد تكفل أوغسطين Aurlius Augustinus (٣٥٤-٤٣٠م)[(١)] ، المعلم الأول للكنيسة الكاثوليكية ، بالترويج لفكرة التاريخ الكاثوليكية، والتقسيم الزمنى المسيحى لتاريخ العالم .[(٢)] لقد قسم أوغسطين تاريخ العالم إلى عصور ستة قياسا على عمر الانسان

E. K. Rand Founders of the Middle, Ages, (Dover, New York (١) 1957), 241-284; Cantor, N, F., The The Medieval World, 2nd ed. (Macmillan, London 1968), pp. 37-45,

على الغمراوى ، مدخل إلى دراسة التاريخ الأوربى الوسيط ، ط. ثانية (القاهرة ١٩٨٧م) ، ص٦٠ - ص٦٢ ؛ بيريل سمالى ، المؤرخون فى العصور الوسطى ، ص٣٨ - ص٤٠ ؛ ويدجرى ، المذاهب الكبرى ، ص١٤٦ - ص١٥٣ .

(٢) قسم أوغسطين تاريخ العالم إلى ستة أقسام مثل الأيام التى خلق الله العالم فيها وجعل يوما سابعا يماثل يوم السبت الذى خصصه الرب للراحة . هذه الأقسام التى وضعها أوغسطين هى :

١- من أدم إلى الطوفان .

٢- من الطوفان إلى إبراهيم .

٣- من إبراهيم إلى دواد .

٤- من دواد إلى الأسر البابلى .

٥- من الأسر البابلى إلى تجسد المسيح .

٦- من تجسد المسيح إلى عصر أوغسطين . وقد تصور أوغسطين أن القسم الأخير فترة وسيطة بعدها ينتهى العالم ، ثم يجىء اليوم السابع الذى يذهب فيه البشر إلى السماء .

بمراحله الست من الطفولة إلى الموت ، وقياسا على الأيام الستة التى خلق الله العالم فيها من ناحية أخرى . ولسنا هنا بصدد مناقشة أفكار أوغسطين التى يمكن بحثها فى إطار تاريخ فلسفة التاريخ، بيد أننا نود أن نشير إلى أن سيادة مفهوم العصور الستة على الكتابة التاريخية فى أوربا العصور الوسطى جعل مؤرخى العصور الوسطى يرزحون تحت وطأة صورة قاتمة للتاريخ الإنسانى الذى صورته المسيحية على أنه مأساة مستمرة تنتهى بالخلاص . وكان لابد لأولئك المؤرخين أن يضعوا مؤلفاتهم داخل إطار هذا التصور .

وإذا دققنا النظر فى إنجازات مؤرخى العصور الوسطى ، لوجدنا أنهم وجهوا طاقاتهم صوب كتابة مايمكن أن نسميه "التاريخ المعاصر" أى الحوادث الجارية وهم شهودها . إذ أن كتابة تاريخ الماضى كانت بالنسبة لهم مجرد النسخ والجمع . أما الدراسة النقدية للماضى ، فكانت تتطلب من مناهج البحث ماكانوا يفتقرون إليه بسبب طبيعة الفكر السائد فى مجال الكتابة التاريخية آنذاك . ففكرة التاريخ المسيحية تقوم على أساس أن الناس فى التاريخ يخضعون لسلطة أعلى منهم ، وحركتهم فى التاريخ مجرد تنفيذ للإرادة الإلهية[1] .

ومن ناحية أخرى كان أهم المؤرخين فى العصور الوسطى من رجال الكنيسة الذين تولوا الزمام فى الحياة الفكرية عموما ، وكان الرهبان

---

(١) سمالى ، المؤرخون فى العصور الوسطى ، ص٣٢ ، ويدجرى ، المذاهب الكبرى ، ص٥٤-ص١٥٥ .

منهم على وجه الخصوص هم الذين كتبوا المؤلفات التاريخية[١]. لقد كانت القرون الأولى من العصور الوسطى فترة ذبول وتدهور فى مجال الكتابة التاريخية وفهم الحركة التاريخية ، لذلك فإن من كتبوا التاريخ فى تلك الفترة ضمنوا كتاباتهم عناصر غيبية لعبت الدور الحقيقى فى توجية أحداث التاريخ ، كما شابت مؤلفاتهم عناصر ثقافية فجة نتيجة لدخول العناصر الجرمانية فى التركيبة السكانية لأوربا .

وقد عرفت العصور الوسطى عدة أنماط من الكتابة التاريخية . فقد وجدت المدونات التاريخية Chronicles لتقوم بدور السجلات ، كما كان عامل الفخر بالماضى حافزا على ظهور تواريخ خاصة ببعض الأسر الإقطاعية ، أو بعض الأديرة ، أو المدن . بيد أن هذا النمط لم يتضمن سوى قدر ضئيل من البحث فى شئون الماضى . لأن الدعاية كانت من ضمن العوامل التى حكمت التدوين التاريخى فى العصور الوسطى ، فقد تجلت فى أشد صورها فظاظة وخشونة فى السير الملكية ، إذ كانت أية سيرة ملكية عبارة عن مؤلف دعائى بكل معنى الكلمة[٢] .

---

(١) Barnes, A. Hist. of Historical Writing., p. 55.

(٢) أنظر على سبيل المثال السيرة التى كتبها اينهارد Einhard (ت٨٤٠م) لشارلمان Einhard and Nother the Stmmer, Two Lives of Charlemagne, (Transl. By Lewis Thrope, Penguin 1974) .

أنظر بالتفصيل عن : Royal Biographies

سمالى ، المؤرخون فى العصور الوسطى ، ص٦٧ -ص٨١ . ومن المهم أن نشير إلى أن هذا النمط من التأليف التاريخى قد انتشر فيما بين سنة ٨٠٠ إلى ١١٥٠م بشكل كبير .

وقد شابت إنجازات مؤرخي العصور الوسطى إلى حد كبير عيوب تتمثل في قلة وسائل البحث وغياب الوعي ، والإيمان الأعمى بروايات شهود العيان. كما أن كتاباتهم ضمت عناصر غيبية اعتقدوا أنها من عوامل صنع التاريخ وجعلوها من وسائط السببية في الظاهرة التاريخية. وعلى الرغم من هذا ، فإنه من العدل أن نشير إلى أن تخلف منهج البحث التاريخي في العصور الوسطى كان ناتجا عن ظروف المجتمع الأوربي نفسه في ذلك الحين ، إذ أن انهيار الحضارة الرومانية ، ثم الغزوات الجرمانية ، قد أنتج العنف والفوضى . وتدهور التعليم بحيث فقد أصالته وحماسته ، أو انتهى تماما في بعض المناطق . كما أن التعصب المسيحي الكاثوليكي تسبب في ضياع الكثير من كنوز التراث الكلاسيكي . ومن جهة أخرى ازدادت صعوبة السفر وخطورته ، فضلا عن ارتفاع تكاليفه بشكل أثر على مجال الفكر وتسبب في ضيق الأفق،[١] ولذلك انحصر التعليم في الأديرة بشكل يكاد يكون مطلقا وكان الرهبان يتولون كتابة التاريخ ، وقد أثرت انحيازاتهم الدينية وأفكارهم الغيبية على الكتابة التاريخية . وحقيقة أن الأديرة قد أنتجت معظم مؤلفات التراث التاريخي وهي التي صبغت المؤلفات التاريخية الأوربية في العصور الوسطى بهذه الصبغة الغيبية .[٢]

---

(١) قاسم عبده قاسم ، الخلفية الايديولوجية للحروب الصليبية - دراسة عن الحملة الأولى ، (الطبعة الثانية، الكويت ١٩٨٨م) ص٩٤-ص١٠٠.

(٢) Barnes, Op. Cit. pp. 56-57 .

لقد كان مؤرخو العصور الوسطى يكتبون وفى ذهنهم أن يمجدوا الرب. كما أن المناهج التى استخدموها كانت بالضرورة متأثرة بدرجة تعليمهم وعلاقاتهم والمكتبات المتاحة لديهم . كذلك كان كثير منهم يكتبون لإرضاء الأمير أو الأسقف أو الملك الذى يعيشون فى كنفه وتحت حمايته، ويعولون على جمهور صغير العدد من معارف حاميهم أو من معارفهم وأصدقائهم . وكانت هذه الظروف من أهم عوائق انطلاق مناهج البحث التاريخى نحو العلمية والعقلانية ، بالإضافة إلى أن ظروف الحياة الفكرية والعلمية عموما كانت تعوق مثل هذا الانطلاق ، إذ لم تكن ثمة علوم طبيعية متقدمة تدحض أخبار المعجزات من ناحية ، ولم تكن هناك علوم اجتماعية تقوم بنقد عادات وتقاليد المجتمع .[١]

لقد كان منهج البحث لدى مؤرخ العصور الوسطى بسيط ابقدر بساطة مهمته فى تدوين تاريخ الفترة التى عاصرها . وقد نعلم من ايسيدور الأشبيلى[٢] أن كتابة التاريخ السابق على عصره تعنى مجرد النسخ

---

(١) سمالى ، المؤرخون فى العصور الوسطى ، ١٣-٢٠

Barnes, Op. Cit. pp. 97-98 .

(٢) اسمه اللاتينى Isidorus Hispalensis (٥٧٠-٦٣٦م) ويعد من أهم المساهمين فى التراث الفكرى الغربى من القرن الرابع حتى القرن الثامن . وكان فيما يبدو تأثير كبير على التعليم فى أوربا العصور الوسطى الباكرة وعلى الحياة الثقافية بوجه عام . وقد وضع عدة مؤلفات فى التاريخ أهمها المدونات Chronica التى عرض فيها لتاريخ العالم منذ البداية حتى عصره . أنظر :

Cantor, N.F., The Medievol History - the life and Death of a Civilization, 2nd. ed., (New York 1969), pp. 68-9.

على الغمرواى ، مدخل إلى تاريخ العصور الوسطى ، ص١١١-ص١١٢ .

من مصادر سابقة . كما أن أوروسيوس[١] وضع نموذجا قياسيا للتاريخ العالمى رتبه حسب تقسيم أوغسطين للزمن . أما الرسالة ذات الموضوع الواحد ، والسير والمراثى فكانت ضمن أنماط التأليف التاريخى التى تأثرت بنماذج قديمة موروثة عن العصور الكلاسيكية .

من ناحية أخرى ، كان اعتماد مؤرخى العصور الوسطى على مصادرهم كبيرا جدا ، ولذلك كانت شخصيات العصور القديمة وشخصيات الكتاب المقدس تطل علينا من بين سطور المؤلفات التاريخية فى العصور الوسطى . أما أصحاب النزعة التأملية من مؤرخى تلك العصور، فقد اتجهوا مباشرة إلى المدارس الديرية أو مدارس الكاتدرائيات ، أو الجامعات حديثة النشأة . وظلت الدراسة التاريخية رهينة هذه الظروف والأطر الجامدة فى أوربا العصور الوسطى فترة طويلة.

وفى وسط هذا الجو يقف أوتو أسقف فريزيا Otto of Freising (ت ١١٥٨م) وحيدا باعتباره مؤرخا له أفكاره عن علم التاريخ ، وهى أفكار أتيح له أن يختبرها فى ضوء خبرته العملية . وأهم مؤلفاته التاريخية كتابان يتصفان بقدر كبير من العقلانية وتغلب عليهما النزعة الفلسفية ، أولهما كتاب (المدينتين) الذى كتبه سنة١١٤٦م ، وهو عبارة عن مسح مفرط فى التشائم لتاريخ العالم تحت تأثير فكر أوغسطين .

---

(١) عن كتابات أوروسيوس وتأثيرها على مناهج البحث التاريخى فى العصور الوسطى انظر : سمالى ، المؤرخون فى العصور الوسطى ، ص٤٨ — ص٥٠

وفى هذا الكتاب أوضح أوتو الفريزى أن تاريخ الممالك العلمانية يكاد ألا يكون شيئا غير سجل للجرائم الكريهة . أما كتابه الثانى ، فهو (أعمال فردريك بربروسا) وقد عكف على كتابته حتى موته وأكمله سكرتيره رايفين . وهذا الكتاب أكثر تفاؤلا ويؤمن بالسجايا الأخلاقية للدولة [١].

ويمكن للمرء أن يتنقل منتشيا بين صفحات المدونات التاريخية والحوليات التى دونها مؤرخو العصور الوسطى ، باعتبارها مصادر للمادة التاريخية . بيد أنه فى الوقت نفسه سوف يفتقد أى وعى أو إدراك عند أولئك المؤرخين بوظيفة التاريخ فى خدمة الحاجات الثقافية / الاجتماعية .

وبنهاية القرن الثالث عشر حدثت تطورات جديدة فى مجال الكتابة التاريخية [٢] فقد شهد القرن الرابع عشر بداية ظهور المؤلفات التاريخية المكتوبة فى اللغات المحلية . وفى هذا القرن أيضا صار المؤرخ العلمانى- سواء كان جنديا أو موظفا مدنيا - فى المقدمة نتيجة لعدة تطورات على الصعيد السياسى والفكرى والاقتصادى والاجتماعى فى أوربا آنذاك . ولدينا أمثلة على ذلك مثل "حياة القديس لويس" التى كتبها جوانفيل Joinville[٣] عن حياة الملك لويس التاسع الذى قاد

---

(١) نورمان كانتور ، التاريخ الوسيط ، ترجمة قاسم عبده قاسم (دار المعارف ١٩٨٣م) ج٢ ، ص٥٣٧-ص٥٤٠ .

(٢) سمالى ، المؤرخون فى العصور الوسطى ، ص١٧٩-ص١٨٧ .

(٣) انظر نص هذه السيرة الملكية فى الترجمة الانجليزية Joinville and Villedhardouin; Chronicles of the Crusades, (Penguin Classics, 1973).

الحملة الصليبية السابعة ضد مصر والمنطقة العربية ، والمدونة التاريخية التى كتبها القائد القطالونى (رومان مونتانز Roman Montanz) ومدونة Scala chronicon الأنجلو - نورمانية ، ومدونة فروسار Froissart عن الحروب الأنجلو/فرنسية ، ومدونات فيلانى عن فلورنسا. وغيرها .

ومن ناحية أخرى كان "للحروب الصليبية" أثرها على التدوين التاريخى فى أوربا العصور الوسطى [١] . إذ كان المؤرخون الأوربيون ، حتى عصر الحروب الصليبية ، أسرى الأطر القديمة التى ورثوها عن الرومان ، والمفاهيم الغيبية التى ورثوها عن الكتاب المقدس وآباء الكنيسة . وكانت الحروب الصليبية تجديدا تاريخيا كبيرا فى الحضارة الغربية الكاثوليكية . وبسبب ما تتسم به قصة الحروب الصليبية من جدة وطرافة ، وما تحفل به من إثارة تحررت كتابة التاريخ فى أوربا من الاعتماد على تقليد النماذج القديمة . ولأن العصور القديمة لم تشهد حركة تشبه الحركة الصليبية ، كان على المؤرخ الذى يكتب قصتها أن يبحث عن منهج يناسب القصة الجديدة . وهكذا صارت الكتابة أقل نمطية وأكثر تلقائية، واتسعت مساحة الفعل الإنسانى فى الرواية التاريخية على الرغم من أن الرب والقديسين كانوا ما يزالون يمارسون أدوارهم الحاسمة فى الرواية . كذلك اكتسب مؤرخو الحركة الصليبية خبرات جديدة ، سواء على المستوى المعرفى أو على مستوى المنهج . لأنهم كانوا فى حال تمكنهم من التعرف على حضارتين فى مرحلة الصدام والتفاعل .

---

(١) قاسم عبده قاسم ، الحروب الصليبية - نصوص وثائق (القاهرة ١٩٨٥م) ص٢٥ - ص٣٧ .

لقد أنتجت "الحروب الصليبية" كتابا علمانيين ، كما تطور الأدب العلماني بفضلها . وكان النمط الجديد من التدوين التاريخي الذى أوجدته الحروب الصليبية مناقضا للتدوين التاريخي الكنسى من عدة وجوه ، وفى الوقت نفسه ، كان هذا النمط من التدوين التاريخي يبدأ بتناول الحقائق ويبحث عن الأسباب الوضعية ، بيد أن الوسائط الغيبية فى تفسير الحدث التاريخي كانت ماتزال موجودة . وإذا كان الوجود الصليبى فى المنطقة العربية قد انتهى بالهزيمة ، فقد كانت لهذه الهزيمة انتصاراتها فى ميدان التدوين التاريخي . لقد أخذ مؤرخو الحروب الصليبية ، الذين كتبوا عن الفشل والهزيمة ، يبحثون عن الأسباب . ولم يعد التدهور الأخلاقى والعقاب الإلهى كافيا لتفسير ذلك فقد أخذوا جميعا يفتشون فى الأحداث التاريخية نفسها عن السبب البشرى والعوامل الإنسانية الكامنة وراء ما يسجلونه من أحداث (١) .

بيد أن التدوين التاريخي فى أواخر العصور الوسطى اعترته تطورات هامة نتيجة لتغير موقف الناس من الماضى . فمن يدرس تراث التدوين التاريخي فى العصور الوسطى يجد نفسه وقد اعتاد الحياة فى عالم فكرى شخصياته كلها تتميز بالاستمرارية من الماضى السحيق حتى الحاضر . ففى صفحات كتب مؤرخى العصور الوسطى يستطيع المرء أن يحاور آدم وحواء ، أو يوليوس قيصر ، أو شارلمان ، كما لو كانوا من جيرانه . وهو مايعنى أن الماضى كان موجودا ومستمرا فى الحاضر بشكل مثير . وكان ذلك راجعا إلى عدم إدراك صيرورة الزمن من

---

(١) سمالى ، المؤرخون فى العصور الوسطى ، ص١٢٧- ص١٥٨ .

ناحية، ومن ناحية أخرى كان راجعا إلى تخلف مناهج البحث التاريخى التى كانت تحاول قولبة الأحداث التاريخية داخل القالب الذى وضعه أوغسطين ، أو الأنماط الكلاسيكية . فقد كان مؤرخ العصور الوسطى يتصور أن الماضى شبيه بالحاضر .

ولكن القرن الرابع عشر شهد انكسار هذه الاستمرارية ، ولم تعد المسألة مسألة انحدار من عصر أفضل إلى عصر أسوأ . وفى الكتابات التاريخية ، العلمانية والكنسية على حد سواء ، كان التناقض بين الماضى والحاضر يبدو كبيراً بحيث يحول دون الاعتقاد باستمرارية الماضى . وكان المؤرخون "الإنسانيون" فى القرن الرابع عشر وما بعده هم أصحاب الفضل فى هذا الاتجاه .

لقد كان الماضى موجودا بالفعل فى كتابات مؤرخى العصور الوسطى، ولم يكن للمؤرخين الانسانيين فضل اكتشاف الماضى من جديد، ولكنهم نقلوا علم التاريخ نقلة نوعية هامة عندما حاولوا اتخاذ منظور يعالجون به تاريخ هذا الماضى . ويبدو منظور الإنسانيين للتاريخ خاطئا اليوم ، إذ كانت أحكامهم على الماضى مشوشة ، ولكن مساهمتهم فى تطور الدراسة التاريخية ومناهجها كانت كبيرة بالقدر الذى يجعلنا نقرر أن التدوين التاريخى بدأ فى القرن الرابع عشر .

ومن المهم أن نشير إلى أن البحث الحديث أثبت أن الفترة التى اصطلح على تسميتها "عصر النهضة" Renaissance قد خرجت تدريجيا من تراث العصور الوسطى ، إذ أنها فى حقيقتها كانت حركة إحياء للاهتمام بالثقافة القديمة . وفى معناها العريض يبدو أن تسمية

هذه الحركة ، فى جانبها الأدبى ، بالإنسانية Humanism يبدو أكثر إقناعا .

ومعنى هذا أن الحركة لم تكن مجرد (إحياء) للآداب الكلاسيكية ، ولكنها كانت أيضا حركة تعيد الاعتبار لاهتمامات الانسان ومصالحه ورؤيته العلمانية على النحو الذى كان سائدا فى الثقافة الكلاسيكية . لقد كانت فى أصلها رد فعل عاطفى شاعرى فى مواجهة الموقف المتزمت الضيق لرجال الكنيسة اللاهوتيين ، ولكنها لم تؤسس أية ثورة فى اللاهوت أو الفلسفة الاجتماعية ، وكان الإنسانيون مرحلة وسطى بين (المدرسيين) الذين عرفتهم العصور الوسطى ، والفلاسفة الاجتماعيين والنقاد المحدثين[١] .

وكان لهذه الرؤية الجديدة تأثيرها البطئ على مناهج الدراسة التاريخية . ويكشف تراث التدوين التاريخى فى القرن الرابع عشر عن أن ثمة تغير فى مناهج البحث وفى المنظور قد بدأ يفرض نفسه ، بيد أن المناهج والأفكار القديمة كانت ماتزال سائدة . فقد استمرت هذه الأفكار القديمة فى الوجود أكثر من ألف سنة ، وهى حقبة طويلة فى تاريخ الفكر لايمكن أن تنمحى آثارها ببساطة .

وقد كانت هناك فروق كبيرة ونوعية فى طبيعة ونوعية إنتاج مؤرخى تلك الفترة، بيد أنه كانت هناك خصائص أساسية فى الكتابة التاريخية. فقد كانت النزعة الإنسانية فى مجال كتابة التاريخ تعنى فى المحل

---

(١) سمالى ، المؤرخون فى العصور الوسطى ، ص١٨٩ .

Barnes, A Hist., p. 99 .

الأول البحث عن النصوص الأصلية الكلاسيكية ، ثم المقارنة والنقد وضبط النصوص المكتشفة . وقد نشأ عن التناول النقدى للنصوص الكلاسيكية إحساس أولى بقيمة الدراسة النقدية للوثائق التاريخية[١] وكانت تلك خطوة هامة فى سبيل نقل مناهج البحث فى الدراسات التاريخية إلى آفاق أخرى غير الإيمان المطلق بالمصادر على نحو ما كان سائدا فى العصور الوسطى .

لقد تحول الإنسانيون مرة أخرى صوب نموذج الكلاسيكيين . وتمثلت أهم إنجازاتهم فى المنهج العقلى العلمانى الذى عالج مسائل كانت تعد من قبل جزءا من الأسرار الإلهية ، كما أنهم نجحوا فى تطوير شكل من أشكال الدراسة النقدية للتاريخ . وعلى أية حال ، فإن فكرة الهوامش التى تحوى الشروح والتعليقات كانت إنجازاً المؤرخى أوربا فى العصور الوسطى [٢] وأغلب الظن أنهم تعلموها من المسلمين . وقد استخدم فالا Valla (١٤٠٧-١٤٥٧م) هذا المنهج لكشف زيف (هبة قنسطنطين) الشهيرة والتى أقامت عليها الكنيسة مزاعمها طوال العصور الوسطى فى نزاعها ضد الدولة .

لقد كانت ظروف التطورات التى مرت بها أوربا آنذاك من أهم تطور الدراسات التاريخية . وذلك أن حركة الالتفاف على طرق التجارة العالمية ومحطاتها ، بغرض انتزاعها من المسلمين والتى شاعت تسميتها الخاطئة باسم حركة الكشوف الجغرافية خلقت طلبا على المعلومات

---

(١) Barnes, A Hist. of Historical Writing, p. 99 .

(٢) Arth Marwick, the Nature of History, pp. 28-29 .

ويدجرى المذاهب الكبرى ، ص ١٧٩- ص١٨٠ .

الجغرافية والتاريخية ، كما أن اختراع الطباعة أعطى دفعة قوية لوسائل الاتصال المكتوبة . وقد شهدت أوربا ثورة علمية وفكرية أخذت تتصاعد حتى تبلورت فى رجل مثل اسحق نيوتن (١٦٤٢-١٧٢٧م) فقد أدرك المفكرون والعلماء حقيقة التغير واهتموا بها ، وكان لعلم التاريخ شأنه فى هذا المجال أيضا [(١)] وقد أدت التطورات التى لايتسع المقام لذكرها إلى أن أصبح التاريخ لدى الانسانيين «تاريخيا» ، بمعنى أن تركيز الإنسانيين على ثقافة فترة مضت منذ زمن بعيد قد كسر إطار "التاريخ المعاصر" الذى كان مؤرخو العصور الوسطى يحصرون أنفسهم فى نطاقه، كما تخلوا عن تقليد النماذج الكلاسيكية فى شكلها ، وإن أخذوا عنها اهتمامها بالإنسان . ومن الواضح أن الإنسانيين أدخلوا على الكتابة التاريخية مزيدا من التحسينات الأدبية والفكرية ، ولكن تقدمهم فى مجال مناهج البحث كان أبطأ وأقل كفاءة . فالواقع أنهم كثيرا ما انتهكوا الحقائق التاريخية لكى تتوافق مع مقتضيات البلاغة وسياق الأسلوب الأدبى .

ويمكن ملاحظة الانتقال فى الأنماط والمناهج فى كتابات المؤرخين الإنسانيين متجسدة فى كتابات البرتينوس موساتوس Albertinus Musatus (١٢٦١-١٣٣٠) فقد كتب بلغة لاتينية كلاسيكية ممتازة عن الحوادث التاريخية وزعماء إيطاليا عند مطلع القرن الرابع عشر . ويعتبر (فرانشيسكو بترارك) بمثابة الأب الحقيقى للمذهب الإنسانى فى إيطاليا ، والكتابة التاريخية الإنسانية أيضا . إذ كان يمسك بأعنة اللغة اللاتينية الكلاسيكية ، وتركز اهتمامه بالتاريخ فى مجال الفكر والثقافة

---

(١) Arthur Marwick, Op. Cit. p. 28 .

وقد ألف كتابا عن تاريخ روما تناول فيه تراجم حوالى واحد وثلاثين بطلا تقليديا من أبطال التاريخ الرومانى ، من رومولوس إلى يوليوس قيصر. وبينما تشكك بترارك كثيرا فى أساطير العصور الوسطى ، فإن شكّه فى الأساطير الواردة) ضمن الكتابات الكلاسيكية كان أقل حدة - وقد شابت منهج (بترارك) فى كتابة التاريخ عيوب كثيرة ، ربما كان أبرزها ناتجا عن إيمانه بأن العصور الوسطى كانت (عصور الظلام) التى أعقبت الفترة الرومانية ، كما أنه فسر تاريخ الثقافة الرومانية فى ضوء معطيات عصره هو [(١)] .

أما "نيكولو مكيافيللى" ١٤٦٥-١٥٢٧م) فهو أول من كتب التاريخ باللغة الإيطالية ، ويعزى اليه فضل تطبيق منهج جديد فى مجال الدراسة التاريخية . إذ أن مناقشاته فى مجال علم التاريخ قد قامت على أساس الدليل ، وليس بناء على تحيز لرؤية أو نظرية مسبقة . وبغض النظر عن كتاب "الأمير" الذى اشتهر به ، فقد نشر سلسلة من المقالات (سنة ١٥١٦م) عن المؤرخ الكلاسيكى ليفيوس ، كما كتب عن تاريخ فلورنسا (سنة ١٥٢٢م) ويعتبر كتابة الأمير (١٥٢٣م) كتابا فى الفلسفة السياسية وفى التاريخ أيضا ، لأن التاريخ لم يكن علما مستقلا فى الغرب الأوربى حتى القرن التاسع عشر . وقد كان هذا الكتاب تقديما واقعيا للتاريخ والسياسة والدبلوماسية فى إيطاليا فى القرن السادس عشر [(٢)] .

---

(١) Barnes, A Hist. of Historical Writing, pp. 101-102.

(٢) Arthur Marwick, The Nature of History. p. 28 .

ويدجرى ، المذاهب الكبرى ، ص١٨٠-١٨٩ .

ويمكننا أن نجد فى كتابات مكيافيللى تحديا واضحا للأفكار التى حكمت مناهج كتابة التاريخ فى العصور الوسطى ، لاسيما فى مسألة العلاقة بين الدولة والكنيسة . ومن ناحية أخرى اتفق مكيافيللى مع الإنسانيين فى اهتمامه بالدولة السياسية ، ورأيه بعدم مسئولية الساسة أمام رجال الكنيسة ، ولكنه اختلف مع سائر الإنسانيين فى عدم اهتمامه بالفرد الذى كان محور الحركة الإنسانية بشكل عام .

والحقيقة أننا لانستطيع فى هذه الدراسة أن نقوم بحصر عام للمؤرخين "الإنسانيين" فى أوروبا عامة وفى ايطاليا على وجه الخصوص[١] ، بيد أننا نلاحظ أن الحركة الإنسانية بشكل عام كانت محدودة بحقيقة مؤادها أن هذه الحركة كانت رد فعل للتصور الكاثوليكى للتاريخ ورؤية مؤرخى العصور الوسطى لحركة التاريخ باعتبارها مجرد حركة لتحقيق الخلاص الإنسانى . ولذلك كان اتجاه الحركة الإنسانية اتجاها نحو الماضى ، وقدموا قليلا من التطوير فى مناهج البحث التاريخى بسبب هذا الموقف الذى كان يشدهم إلى الماضى الكلاسيكى الذى رأوه مجيدا وجديرا بالإحياء .

---

(١) انظر - Barnes, A Hist. of Historical Writing. pp. 101-120 .

-٧-

وقد شهدت أوربا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر مشروعات علمية كبرى تمخضت عن تكوين مجموعات ثمينة من الوثائق . وكان توفر هذه المادة "التاريخية" الخام من أهم عوامل بزوغ المناهج النقدية فى الدراسات التاريخية .

وفى عصر التنوير ، الذى بدأ مع بداية القرن الثامن عشر ، بدأ المؤرخون الفرنسيون يشنون الهجوم الأخير على القاعدة اللاهوتية التى قامت عليها مناهج الكتابة التاريخية فى العصور الوسطى ، والتى اكتسبت دفعة إحيائية إبان الصراع بين أنصار الإصلاح الدينى وخصومهم [١] وقد جسد هذا الاتجاه عدد منهم جاك بوسيه (١٦٢٧-١٧٠٤م) ومونتسكيو (١٦٨٩-١٧٧٨م) .

ومن بين هؤلاء جميعا لايمكن أن يعزى فضل النقلة النوعية فى مناهج البحث التاريخى إلا لفولتير[٢] ، الذى يميل الكثير من المؤرخين إلى اعتباره مؤسس علم التاريخ بمفهومه الحالى فى الغرب . وكان أول مؤلف ينشره فولتير هو "تاريخ شارل الثانى عشر Histoire de Charles XII ملك السويد ونشره سنة ١٧٣١م ويعد قطعة ممتازة فى التأليف الأدبى . أما أهم مؤلفاته من حيث تطورها المنهجى فهو كتابه "عصر لويس الرابع

---

(١) عن تأثير حركة الإصلاح الدينى على الكتابة التاريخية انظر : =

Barnes, A Hist, of Historical Writing, pp. 121-135 .

(٢) حسين مؤنس ، التاريخ والمؤرخون (دار المعارف ١٩٨٤م) ، ص٦٧-ص٦٨ .

Arthur Marwick, The Nature of History, p. 30; Barnes, Op. Cit. pp. 152-156 .

عشر" الذى يصفه البعض بأنه أول مؤلف تاريخى حديث . ففى هذا الكتاب تخلى فولتير تماما عن النظام الحولى ، وعن نظام التتابع الزمنى للأحداث ، ونظم كتابه على أساس من ترتيب الموضوعات . ومن ناحية أخرى ، كانت هذه هى المرة الأولى التى يتناول فيها كتاب تاريخى حضارة أوربية تناولاً شاملاً .

كما أن مقالته عن عادات الأمم وروحها (١٧٥٦م) يعتبر عادة أول مؤلف فى التاريخ العالمى بالمعنى الحقيقى للمصطلح . وكانت هذه أول مرة يتم فيها الاعتراف بفضل الحضارات الشرقية والحضارة الإسلامية على الحضارة الأوربية . وقد وجد فولتير كثيرا ممن ساروا على منهجه من المؤرخين فى سائر أنحاء الغرب الأوربى . وقد نبه فولتير وتلاميذه إلى أن الأمور الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، تدخل فى صميم عمل المؤرخ شأن أخبار البابوات والملوك .

لقد تقدم مؤرخو القرن الثامن عشر كثيرا صوب التاريخ الاجتماعى والتاريخى الثقافى بيد أن ثلاثة عيوب أساسيا كانت تشوب مناهج البحث فى ذلك القرن ، أولها : عدم إدراك المؤرخين لحقيقة التطور والتغير الإنسانى بحيث خلت مؤلفاتهم تماما من أى إحساس بهذا . وثانيها : أنه على الرغم من أن الدراسة البحثية قد استمرت إلى جانب التفسير والتحليل ، فإن الرابطة بين جميع المعلومات البحثية وتحليلها كانت ضئيلة إلى حد بعيد . بمعنى أن مؤرخى تلك الفترة اهتموا بجمع الوثائق والأدلة ، لكنهم نادرا ما كانوا يعكفون على تحليلها . وثالثها : أنه حتى فى القرن الثامن عشر لم يكن التاريخ مادة دراسية مستقلة فى مدارس وجامعات أوربا ، ولم يكن يدرس مستقلا سوى فى قصور

الأمراء ورجال الدولة باعتباره من أدوات التربية والتدريب السياسى[١]. وكان الهجوم على نقاط الضعف الثلاث فى الدراسة التاريخية هو الذى فتح الطريق أمام ظهور التاريخ بمعناه الحديث فى أوربا ، أى التاريخ بوصفه دراسة أكاديمية . فبعد الهبات الثورية الكبرى فى القرن الثامن عشر لم يعد من الممكن تصديق القول بأن طبيعة الإنسان لاتتغير، كما أن أحداً منهم لم يؤمن بثبات المؤسسات الاجتماعية أو جمودها . وكانت مساهمات ليوبولد فون رانكه[١] Leopold Von Ranke (١٧٩٥-١٨٨٦) فى مجال مناهج البحث التاريخى من الصرامة بحيث استوجبت أن يعتمد المؤرخ على المصادر المعاصرة فى إعادة تصوير الماضى "كما حدث بالضبط" .

ولكن هذا الموقف الذى اتبعه (رانكه) وتلاميذه كان جزءا من النزعة الرومانسية التى تملكت الأوربيين آنذاك ، وقد أدى إلى إحساس المؤرخين بالفشل حين عجزوا عن تحقيق هذه التوصية . بيد أن هذا الموقف ، من ناحية أخرى ، أحدث تطورا هاما فى مناهج البحث بسبب الاصرار على دقة الوثائق . وبدأت الدراسات النقدية للمصادر والوثائق التاريخية تفرض نفسها ضمن مناهج البحث التاريخى . والكثير ممن كتبوا فى تاريخ الكتابة التاريخية يعتبرون رانكه ومدرسته مسئولين عن صرامة

---

(١) Arthur Marwick, Op. Cit., pp. 33- FF .

(٢) حسين مؤنس ، التاريخ والمؤرخون ، ص٧٤-ص٨٢ ، ويدجرى ، المذاهب الكبرى ص٣٠٤- ص٣٠٦ .

Arthur Marwick, Op. Cit., p. 34; Barnes, A Hist. of Historical Writing, pp. 245-248 .

مناهج البحث فى دراسة التاريخ تحقيقا لقول (رانكه) بأن "الصرامة فى تقديم الحقائق التاريخية هى القانون الأسمى فى كتابة التاريخ" [١].

ولكل مؤرخى تلك الفترة نقاط الضعف التى تشوبهم بطبيعة الحال ، إذ أن (رانكه) قد ألزم نفسه وتلاميذه بمجرى ضيق للغاية فى دراسة التاريخ من خلال الدبلوماسية وأحوال الساسة والسياسة فى مواجهة المؤرخين الذين اهتموا بتاريخ الحضارة ، ثم وقعوا فريسة للصياغات الرومانسية والمبالغة بسبب عدم دقة مناهجهم . ولكن النتاج الأخير لمدرسة "فون رانكه" تتجسد فى الحقيقة القائلة بأنه أوجد الدراسة التاريخية بمعناها الحديث[٢] ، ولكنها فى النصف الأول من القرن التاسع عشر - كانت ماتزال بحاجة إلى التهذيب والتطوير حتى تصل الدراسة التاريخية فى الغرب إلى ما وصلت إليه الآن .

وعلى الرغم من تأثير أعمال مدرسة "رانكه" وعلى الرغم من حلقات الدراسة والنقاش (السمنار) التى كان "رانكه" يعقدها لتلاميذه فى الربع الأول من القرن التاسع عشر ، فإن هذا القرن انصرم دون أن تتحول دراسة التاريخ إلى نظام أكاديمى فى أوربا الغربية ، أو فى أمريكا الشمالية .

ولكن ذلك لم يمنع وجود بعض المظاهر والدلائل على تطور مناهج البحث فى الدراسات التاريخية تمثلت فى ظهور عدد من الكتب تتناول طرق البحث فى التاريخ ، مثل كتاب "لانجلوا وسينوبوس Charles Seignobos, C.V Langloi (١٨٥٤-١٩٤٢م) الذى يعده البعض

---

(١) Arthur Marwick, op. Cit., pp. 36-37 .

(٢) Idid., pp. 38 - 40 .

من أفضل ما كتب فى طرق البحث التاريخى [١] والذى ظهر تحت عنوان "مقدمة لدراسة التاريخ" وأهم ما أكد عليه هذا الكتاب هو ضرورة وجود منهج واع لدراسة التاريخ . وقد تأثر بهما كثير من المؤرخين بشكل تبلور فى ذلك التطور المثير الذى لحق بمناهج البحث فى الدراسات التاريخية فى القرن العشرين[٢].

لقد شهد القرن التاسع عشر مايمكن أن نسميه ثورة فى الدراسات التاريخية ، وقد كانت هذه الثورة هى الأساس الذى قامت عليه الدراسات التاريخية الحديثة . وأصبح التاريخ علما يهاجم المجهول من أجل الكشف عن غوامضه . وبينما كانت جذور العلم التاريخى فى القرن العشرين تضرب بجذورها فى عمق تربة مناهج البحث التاريخية التى تم إرساؤها فى القرن التاسع عشر ، فإن القرن العشرين شهد أيضا عددا من ردود الفعل تجاه الصياغات الضيقة التى حبس فيها "رانكه" واتباعه التاريخ . وظهرت فروع متعددة جديدة من الدراسات التاريخية، ولكن كلا من فروع الدراسات التاريخية الجديدة لم يكن "جديدا" تماما كما يحب المتحمسون له أن يعتقدوا ، إذ أن الدراسات التاريخية فى القرن التاسع عشر كانت قد طورت بالفعل عدداً من الاتجاهات الجديدة فى مجال التاريخ الاقتصادى ، والتاريخ الاجتماعى ، والتاريخ الثقافى، وتاريخ النظم والمؤسسات الدستورية . وكانت هذه الاتجاهات الجديدة نتاج البيئة الفكرية التى حكمتها ظروف نشوب الحرب العالمية

---

(٢) حسين مؤنس ، التاريخ والمؤرخون ، ص١٥٣-ص١٥٦ .

(٢) Arthur Marwick, the Nature of History, pp. 50-54 .

الأولى من جهة ، ونتيجة لعدم اليقين الذى هز مسلمات القرن التاسع عشر نتيجة شيوع النظرية النسبية من جهة أخرى [١] .

وليس بوسعنا أن نتابع الاتجاهات الجديدة فروع الدراسات التاريخية فى القرن العشرين فى هذه الدراسة ، لأن هذا الموضوع يستحق فى تقديرنا أن تخصص له دراسة مستقلة . بيد أننا سنحاول أن نشير إلى أهم الخطوط العريضة لهذا التطور الحاسم فى مجال الدراسات التاريخية سواء من حيث التراكم المعرفى ، أو من حيث التطور النوعى المذهل فى مناهج البحث فى الدراسات التاريخية[٢] .

لقد تسببت الظروف التى حكمت أوربا بعد الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية فى تحول كثير من المؤرخين إلى تغطية كافة أنشطة الإنسان فى الكون باعتبارها مجالات لعمل المؤرخ ، سواء كان ذلك فى مجال الفكر ، أو الإقتصاد ، أو الاجتماع أو السياسة ، فضلا عن التاريخ العلمى والتكنولوجى . وقد ساعدهم على ذلك تقدم علوم أخرى تهتم بالدراسات الإنسانية ، مثل علم النفس والعلوم الإجتماعية، كما حفزهم تقدم التصنيع الحديث ، ونمو الحياة الحضرية ، وتطور المدن فضلا عن تزايد النزعة العلمانية . وظهرت فروع للدراسة التاريخية فى كل مجال ، فظهر "التاريخ الفكرى" و"تاريخ العلوم" و"تاريخ التكنولوجيا" ، مثلما رسخت أقدام "التاريخ الاقتصادى" و"التاريخ

---

(١) Idid, p. 56 .

(٢) Barnes, A Hist. of Historical Writing, pp. 291-309; Arthur Maruick, The Nature of History, pp. 56-71 .

الاجتماعى" و"التاريخ السياسى الدستورى" فضلا عن "التاريخ العالمى" و"تاريخ الحضارة" والثقافة" كذلك ظهرت جمعيات متخصصة فى فروع الدراسات التاريخية المختلفة . ومن البديهى أن كل فرع قد طور مناهج البحث الخاصة به ، وظهرت أسماء عديدة لمتخصصين لامعين فى كل فرع من فروع الدراسات التاريخية .

* * *

هذه بشكل عام الخطوط العريضة لتطور مناهج البحث فى الدراسات التاريخية فى رحلة طويلة عبر الزمان ، منذ أن بدأ التاريخ يحبو فى حجر الأسطورة حتى صار علما له مناهجه وفروعه المختلفة وتخصص له الكراسى فى الجامعات ، كما تقام له مراكز البحث والأقسام العلمية .

والأمر الذى يلفت الانتباه أن علم التاريخ كان يتطور استجابة لتطور المجتمع نفسه من ناحية ، كما أن تطور مناهج البحث فى التاريخ لم يكن يتم بمعزل عن تطور العلم التاريخى نفسه . وثمة علاقة جدلية بين تطور مناهج البحث التاريخى والتطور المعرفى للعلم نفسه . ومن ناحية أخرى ، كانت المناهج القديمة تظل موجودة إلى جانب المناهج الحديثة فى بعض الأحيان طالما كانت تخدم نمطا من أنماط الكتابة التاريخية التى تلبى حاجة ثقافية / اجتماعية . وقد تجلى هذا كله واضحا من خلال متابعتنا للخطوط العامة لتطور الكتابة التاريخية فى التراث العربى الإسلامى .

كما ظهر واضحًا من خلال رصد الخطوط العامة لنمو النزعة التاريخية وتطور الكتابة التاريخية فى تراث الحضارة الغربية بشكل

عام . ويبقى أن نقرر أن التطور الذى شهده النصف الثانى من القرن العشرين فى مجال الدراسات التاريخية وتطور منهج البحث التاريخى قد خلق ثورة صامتة فى هذا المجال توازى فى إنجازاتها أضعاف ما تحقق عبر العصور الطويلة التى قطعها علم التاريخ منذ كان يحبو فى حجر الأسطورة حتى صار علمًا أكاديميًا مستقلاً بذاته . ولأن الإنسان يحتاج دائمًا إلى إعادة قراءة ماضيه ، أى تاريخه ، بشكل يخدم حاضره ويساعده على بناء مستقبله ؛ فإن هذه الحاجة الثقافية الاجتماعية المستمرة والمتجددة وسعت من نطاق الدراسات التاريخية من ناحية، كما أنها أحدثت تطوراً مذهلاً فى مناهج البحث التاريخى من ناحية أخرى. وصار تراث المعرفة التاريخية حافلاً «بالقراءات» المتنوعة للتاريخ : فإلى جانب القراءة الأسطورية ، والقراءة الدينية، والقراءة السلطوية أو الحكومية وجدت القراءة العنصرية والقراءة الاستعمارية والقراءة الديموقراطية والقراءة الوطنية والقراءة الشعبية ... وغيرها .

وهذا موضوع يحتاج إلى دراسة خاصة به نأمل أن نقوم بها فى المستقبل القريب إن شاء الله .

قائمة المصادر والمراجع

* **القرآن الكريم .**

* **الكتاب المقدس (طبعة القدس) .**

* **ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على الشيبانى) :**

- الكامل فى التاريخ . دارصادر - بيروت .

* **ابن إياس (أبو البركات محمد بن أياس الحنفى المصرى) :**

- بدائع الزهور فى وقائع الدهور . تحقيق محمد مصطفى .

* **أحمد محمود صبحى :**

- فى فلسفة التاريخ . منشورات الجامعة الليبية - بدون تاريخ .

* **أحمد بدوى وصقر خفاجة :**

- هردوت يتحدث عن مصر ، دار العلم - القاهرة ١٩٦٦م .

* **أرسطوطاليس :**

- فن الشعر (ترجمة عبد الرحمن بدوى) النهضة المصرية ١٩٥٣م.

* **إدوارد كار :**

- ماهو التاريخ ؟ ترجمة ماهر كيالى وبيار عقل بيروت ١٩٧٦م .

* **بيبرس الدوادار (الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار المنصورى) .**

- زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة . مخطوط رقم ٢٤٠٢٨ جامعة القاهرة .

- التحفة الملوكية فى الدولة التركية . مخطوط رقم ٩٢٠٤٢ جامعة القاهرة .

*** بيريل سمالى :**

- المؤرخون فى العصر الوسطى . ترجمة قاسم عبده قاسم ط. ثانية. دار المعارف ١٩٨٤ .

*** ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى) :**

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية.

- منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور - تحقيق ولم بوبر - كاليفورنيا ١٩٣٠م .

- المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى - الجزء الأول تحقيق أحمد يوسف نجاتى والجزء الثانى تحقيق محمد محمد أمين .

*** جب (سير ها ملتون جب) :**

- علم التاريخ (كتب دائرة المعارف الإسلامية) بيروت ١٩٨١م .

- دراسات فى حضارة الإسلام .

ترجمة إحسان عباس وآخرون . بيروت ١٩٦٤م .

*** ب. جيربحوريان :**

- الفلسفة وفلسفة التاريخ (ترجمة هيثم طه ، دار الفارابى . بيروت ١٩٨٠م) .

* ابن حجر العسقلانى :

- إنباء الغمر بأنباء العمر - تحقيق حسن حبشى . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة .

تحقيق محمد سيد جاد الحق القاهرة ١٩٦٦م .

* حاجى خليفة :

- كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون . استنبول ١٩٤١ .

* حسام الألوسى :

- الزمن فى الفكر الدينى والفلسفى . بيروت ١٩٨٠م .

* حسن محمود :

- الكندى المؤرخ وكتابه : الولاة والقضاة . سلسلة أعلام العرب .

* حسين نصار :

- نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى (ط. ثانية) القاهرة ١٩٦٦.

* ابن خلدون (عبد الرحمن ولى الدين) :

- المقدمة ، طبعة كتاب التحرير . القاهرة ١٩٦٦م .

* الذهبى (شمس الدين أحمد بن عثمان) :

- دول الإسلام ، تحقيق محمد شلتوت ، ومحمد مصطفى إبراهيم.

- تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام .

الجزء الأول . تحقيق محمد عبد الهادى شعيرة .

* **راوس (أ. ل) :**

- التـاريـخ ، أثره وفـائدتـه . تـرجـمـة مـجـد الديـن حـفـنى نـاصـف . الألف كتاب .

* **ابن زنبل الرمال :**

- آخرة المـاليك . تحـقيق عبـد المنعم عـامـر . سلسلة كـتب ثقـافيـة (١٥٣)

* **الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى) :**

- تاريخ الرسل والملوك . تحـقـيق مـحـمـد أبـو الـفـضـل إبـراهـيـم . دار المعارف .

* **سعيد عاشور :**

- «الحيـاة الإجتـمـاعيـة فـى المدينة الإسلامـيـة» عـالـم الفكـر ، ابريـل/ يونيو ١٩٨٠م .

- الـعـصـر المـمـاليكى فى مـصـر والـشـام (ط . ثـانـيـة) الـقـاهـرة ١٩٧٦م.

* **السيد عبد العزيز سالم :**

- تاريخ العرب قبل الإسلام ، الاسكندرية - بدون تاريخ .

* **سيدة كاشف :**

- مـصـادر الـتـاريخ الإسـلامـى ومـنـاهـج الـبـحـث فـيـه (ط. ثانـيـة) القاهرة ١٩٧٦م .

* **السخاوى (شمس الدين عبد الرحمن السخاوى) :**

- الإعلان بالتوبيخ لم ذم التاريخ .
  تحقيق فرانز روزنتال وترجمة أحمد صالح العلى . بغداد ١٩٦٣م .
- التبر المسبوك فى ذيل السلوك .
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع . القاهرة ١٣٥٤م .

* **السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن) :**

- حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة . القاهرة ١٢٩٩م .

* **صلاح الدين المنجد :**

- أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب ، بيروت ١٩٦٣م .

* **صمويل نوح كريمر :**

- أساطير العالم القديم . ترجمة أحمد عبد الحميد يوسف ، القاهرة ١٩٧٤م .

* **عبد العزيز الدورى :**

- بحث فى نشأة علم التاريخ عند العرب ، بيروت ١٩٦٠م .

* **عبد الحميد العبادى :**

- «التاريخ عند العرب» مقال فى كتاب هرنشو ، علم التاريخ (ترجمة العبادى) .

* عبد اللطيف حمزة :

- القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى عرض وتحليل . أعلام العرب/ ١٩٦٢م .

- الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول .

* عز الدين اسماعيل :

- المكونات الأولى للثقافة العربية قبل الإسلام . بغداد ١٩٧٣م .

* عفاف صبره :

- «فن التراجم فى عصر السخاوى» مقال غير منشور فى ندوة السخاوى - الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . مارس ١٩٨١م .

* على الغمراوى :

- مدخل إلى دراسة التاريخ الأوربى الوسيط (ط. ثانية) القاهرة ١٩٧٧م .

* على أدهم :

- بعض مؤرخى الإسلام ، مكتبة نهضة مصر .

* على أومليل :

- الخطاب التاريخى ، دراسة منهجية ابن خلدون . بيروت (د.ت).

* **عماد الدين خليل :**

– التفسير الإسلامي للتاريخ . بيروت ١٩٧٥م .

* **العمرى (شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى) :**

– مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار .

الجزء الأول نشره أحمد زكى . القاهرة ١٣٤٢ هجرية

ونشر الجزء الخاص باليمن أيمن فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٧٤م .

– التعريف بالمصطلح الشريف . القاهرة ١٣١٢ هجرية .

* **أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر) :**

– المختصر فى تاريخ البشر . دار المعرفة – بيروت .

* **عفت محمد الشرقاوى :**

– أدب التاريخ عند العرب ، القاهرة ١٩٧٦م .

* **فراس السواح :**

– مغامرة العقل الأولى : دراسة فى الاسطورة – سورية وبلاد الرافدين (دار سومر ، قبرص ١٩٨٦م) .

* **قاسم عبد قاسم :**

– دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى – عصر سلاطين المماليك . دار المعارف ١٩٧٩م .

– الحروب الصليبية : نصوص ووثائق . القاهرة ١٩٨٥م .

– الرواية التاريخية فى الأدب العربى الحديث (ط. أولى) القاهرة ١٩٧٧م .

* قيس النورى :

- الأساطير وعلم الأجناس ، بغداد ١٩٨١م .

* ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم) :

- المعارف . حققه وقدم له ثروت عكاشة (ط. رابعة) دار المعارف ١٩٨١م .

* القلقشندى (أبو العباسى أحمد بن على) :

- صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ، طبعة دار الكتب المصرية .

* كارل بروكلمان :

- تاريخ الأدب العربى . ترجمة عبد الحليم النجار ورمضان عبد التواب . دار المعارف .

* كولينجوود (روبين جورج) :

- فكرة التاريخ . ترجمة محمد بكير خليل ، القاهرة ١٩٦٨م .

* لطفى عبد الوهاب :

- "عالم هوميروس" ، مجلة عالم الفكر (المجلد ١٢ ، اكتوبر - ديسمبر ١٩٨١م) .

* محمد أحمد جاد المولى وآخرون :

- أيام العرب فى الجاهلية . القاهرة ١٩٤٢م .

* محمود شكرى الألوسى :

- بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب . القاهرة ١٩٢٤م .

* محمد عبد المعيد خان :

- الأساطير والخرافات عند العرب . (ط. . ثالثة) بيروت ١٩٨١م.

* محمود إسماعيل :

- سوسيولوجيا الفكر الإسلامى - محاولة تنظير . الدار البيضاء . ١٩٨٠ .

* محمد كامل حسين :

- الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربى حتى آخر الدولة الفاطمية . سلسلة الألف كتاب .

* محمد عبد الغنى حسن :

- التراجم والسير . دار المعارف ١٩٦٦م .

* محمد عبد الله عنان :

- مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية . دار الكتب ١٩٣١م .

* المسعودى :

- التنبيه والإشراف . دار التراث - بيروت ١٩٦٨م .

* المقريزى (تقى الدين أحمد بن على المقريزى) :

- السلوك لمعرفة دول الملوك . تحقيق زيادة وعاشور . طبعة دار الكتب المصرية .

-المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . طبعة بولاق ١٢٧٠هـ .

- إغاثة الأمة بكشف الغمة . تحقيق زيادة والشيال . القاهرة ١٣٥٩هـ .

* ناصر الدين الأسد :

- مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية (ط. خامسة) دار المعارف ١٩٧٨م .

* النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) :

- نهاية الأرب فى فنون الأدب ، طبعة دار الكتب المصرية .

* وهب بن منبه :

- كتاب التيجان فى ملوك حمير . تحقيق ونشر مركز الدراسات والأبحاث اليمنية . صنعاء ١٣٤٧هـ .

* ويدجرى (آلبان . ج.) :

- التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس إلى تويبنى ، ترجمة عبد العزيز جاويد القاهرة ١٩٧٢ .

* يان فانسينا :

- المأثورات الشفاهية (ترجمة وتقديم د. أحمد مرسى) القاهرة ١٩٨١م .

* مجموعة من الأساتذة :

- دراسات عن المقريزى . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧١م .

- ابن أياس : دراسات وبحوث . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م .

- القلقشندى وكتابه صبح الأعشى . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م .

- المؤرخ ابن تغرى بردى . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م

- دراسات عن ابن عبد الحكم الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م.

* دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) :

مادة تاريخ .

* مجلة عالم الفكر أبريل / يونيو ١٩٧٤م :

- Arthur Marwick, The Nature of History. Macmillan. London 1970 .

- Carl G. Gustavson, A Preface to History. Mc Graw, Hill. N.Y. 1955 .

- Donald V. Gawranski, History, Meaning and Method. U. S. A. 1969 .

- Donald Little, An intoduction to Mamluk Historiography .

- Einhard and Notker the Strammer, Two Lives of Charlemagne, (transl. by Lewis Thrope, Penguin 1974)

- Finley (M. I) The Portable Greek Historians. 14 th ed. New York 1972 .

- Grace Cairms, Philosophy of Hist. N. U. 1962 .

- Gordon Childe, What Happened in History. Penguin .

- Harry Elner Barnes, A History of Historical writing. 2 nd ed. N. Y. 1963 .

- Johan Huizinga, A Definition of History, Philosophy of History; Essays Presented to Earnst Cassirer, eds, Raymond Klibansy and H. H. Patan N. Y. 1963 .

- Joseph Care, How the Great Religians Began. U. S. A. 1956 .

- Joinville and Villehardouin, Chronicle of the Crusades (Penguin 1973) .

- Mozheruddin Siddiqi, The Quranic Concept of History. Karachi 1965 .

- Norman F. Cantor, Medieval History. 2 nd ed. N. Y 1968 .

- Sidney Hook, The Hero in History, Boston 1957 .

- Tacitus, The Agricola and the Germania, (Transl. and edited by H. Mattingly, Penguin 1970); The Histories, (transl. and edited by Kenneth Wellesley (Penguin 1974).

- Vernon J. Bourke, The Essential Augusin U. S. A. 1964 .

فهرس المحتويات

الصفحة

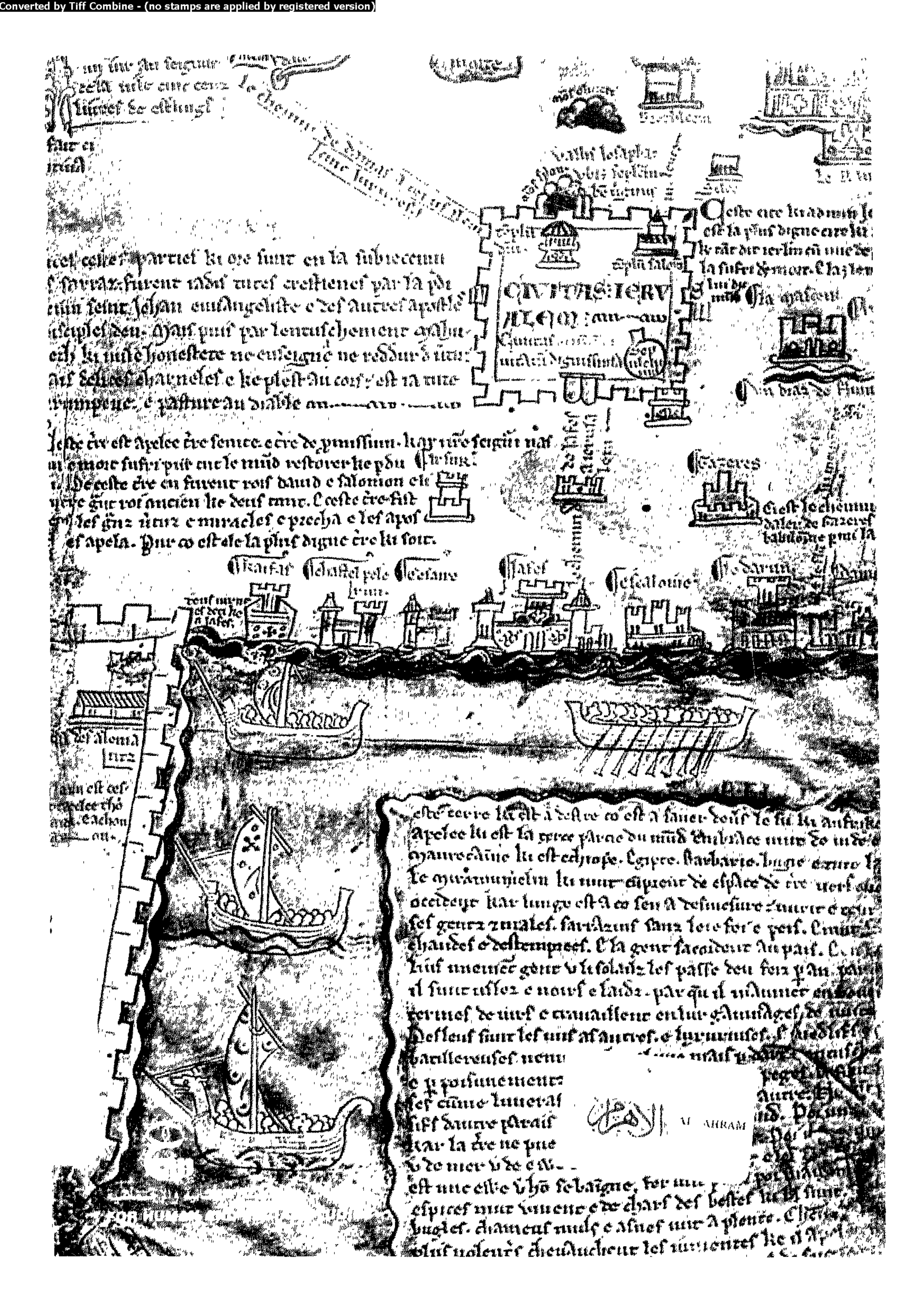
رقم الإيداع ١٤٤١٦/٩٩

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 322 - 017 - 6

دار روتابرينت للطباعة ت: ٣٥٥٢٣٦٢ - ٣٥٥٠٦٩٤

٥٣ شارع نوبار - باب اللوق




CIVITAS: IERV
الأهرام
AL AHRAM